معجزة النعمة

إدوين پامَرْ

ترجمة وتحرير
وجيه يوسف

معجزة
النعمة

معجزة النعمة

إدوين پَامَرْ

تِرجمة وتحرير

وجيه يوسف

الطبعة الأولى ٢٠٠٩
طُبِعَ في مصر

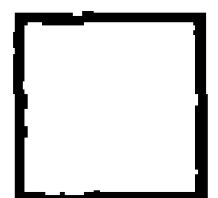
للطلبات، والمراسلات يرجى الكتابة على:
wageeh@etsc.org, + (202) 268-256-80

يوسف، وجيه، ١٩٧٢-
معجزة النعمة/ وجيه يوسف. ط١

مراجعة لُغويّة: الشيخ نجيب وهبة؛ القس أشرف شوق
ص؛ سم X سم.

رقم الإيداع بدار الكتب: ٣٤٩٧/ ٢٠٠٩

اللاهوت النظاميّ، العقيدة المُصْلَحة، المبادئ الخمسة للعقيدة المشيخيّة. 230/.4/2



صورةُ الغلاف

تعتبر زهرة التُيوليِب رمزًا للفكر المُصْلَح؛ حيث إن الحروف المكوّنة للكلمة في اللغة الإنجليزيّة، تشكّل الحروف الأوائليّة للمبادئ المشيخيّة الخمسة، موضوع دراسة هذا الكتاب.

فهرس المحتويات

المقدمة

المقدمة

يحتوي هذا الكتاب على ترجمة الفصـــول الخمســـة الأولى من كتاب *The Five Points of Calvinism*، لمؤلفه Edwin H. Palmer، وفي بداية الكتاب الحـــالي، ونهايتـــه، وضع المترجم مقالين: واحدٌ عن الهويّة اللاهوتيّـــة للكنيســـة، والآخر عن علاقة الكرازة بالتعيين السابق. المقصود من هـــذا العمل هو وضع أهمّ العقائد المشيخيّة أمام الكنيسة العربيّـــة، وخاصةً مع حلول الذكرى الخمسمائة لميلاد المصلح العظـــيم چـــون كالـــڤـــن (10 يوليـــو 1509-27 مـــايو 1564)، للتذكرة، والمناقشة.

وكَمْ أتمنى أن تعير الكنيسة الإنجيليّة "المشيخيّة" في مصر والشرق الأوسط هذا الحدث بعض الاهتمام! فهناك مؤتمرات عالميّة تمّ الإعداد لها منذ سنوات للاحتفال بهـــذه الـــذكرى. ولكن، على قدر معرفتي، لا يوجد في كلّ الشرق الأوسط أيّ إعداد لهذه الاحتفاليّة. وبناءً عليه، رأيت أن أقدم هذا العمل، كهديّة للقارئ العربيّ، بمناسبة هذه الذكرى الهامة.

إن ما دفعني لترجمة وتحرير هذا العمل هو محاولة الوقوف على الأساسيّات التي تُعرَّف بها العقيدة المشيخيّة؟ وما الذي يميّز المشيخيّين عن باقي المؤمنين البروتستانت الآخرين؟ وكيف يرى المرءُ انسجامًا بين عناصر الفكر المشيخيّ المختلفة؟!

إن الكتاب الذي قمتُ بترجمته ليس كتابًا متخصّصًا بالمعنى الأكاديميّ. فهناك العديد من الكتب والمراجع التي تتحدث عن الفكر المُصْلَح. أغلبها، للأسف باللغة الإنجليزيّة. وهناك البعض الذي تمت ترجمته للغة الضاد. أذكر على سبيل المثال الكتاب القيّم **نظام التعليم في علم اللاهوت القويم** والمعروف باسم **علم اللاهوت النظاميّ**، وكتاب **بين العقل والإيمان** (4 أجزاء). وعدا ذلك، هناك فقر في المكتبة اللاهوتيّة العربيّة فيمَ يتعلق بكتب الفكر المُصْلَح.

على أيّة حال، فقد كان قصد الكاتب الأصليّ أن يكون هذا العمل كمرشد دراسيّ يمكن استخدامه في الكنائس، ومجموعات الدراسة. وقد قرأت هذا الكتاب حين كنت في آخر سنوات الدراسة في كليّة اللاهوت الإنجيليّة بالقاهرة، عام 1994. وشعرت، ساعتها، أنه عمل مهم. وتمنيتُ أن أجده يومًا مترجمًا في لغتنا العربيّة. ومضت سنوات، وإذ صار الاحتياج لهذا العمل ملّحًا بشكل متزايد، فقد رأيت أن أنقله إلى اللغة العربيّة.

لقد عمل المؤلف، Edwin H. Palmer، محرّرًا عامًا لـ NIV Study Bible، كما خدم كقَسّ للعديد من الكنائس المُصْلَحة في ولاية ميتشيجن، بالولايات المتحدة الأمريكيّة. وله العديد من المؤلفات اللاهوتيّة القيّمة.

أمّا عن موضوع الكتاب، فهو قضيّة لاهوتيّة تعود للقرن السابع عشر. فبعد موت يعقوب أرمينيوس Jacob Arminius (1560م-1609م) والذي كان لاهوتيًّا هولنديًّا، عرض أتباعه مجموعة من العقائد التي رأوْا أنها صحيحة. أُطلق على هذه الوثيقة Remonstrance. وكانت هذه العقائد تتعارض مع موقف الكنيسة المُصْلَحة. وطالب أتباع أرمينيوس بتغيير عقيدة الكنيسة، والاعتقاد بما كتبوه في تلك الوثيقة. وجاءت الوثيقة في خمس نقاط تناقض الفكر الكلفينيّ/المُصْلَح:

التعيين السابق مشروط
كفارة المسيح عالميّة
لا يقدر الإنسان أن يؤمن من تلقاء نفسه
نعمة الله مهمة في خلاص الإنسان، لكنها يمكن أن تقاوم
يمكن أن يهلك المؤمن

وقد دعت الحكومة الهولنديّة لانعقاد سنودس للنظر في القضيّة، وانعقد سنودس دورت Dordrecht من 13 نوفمبر 1618 حتى 9 مايو 1619. هذا وقد قرّر السنودس عدم

دقة الأفكار سالفة الذكر؛ وبدلاً منها، وضع المبادئ المشيخيّة المعروفة باسم The Five Points of Calvinism، أو ما يشار إليه بحروف زهرة الـ TULIP. وتمثّل الكلمة الحروف الأوائليّة لهذه النقاط:

Total Depravity
Unconditional Election
Limited Atonement
Irresistible Grace
Perseverance of Saints

الفساد الكليّ للطبيعة البشريّة بعد السقوط
الاختيار غير المشروط
الكفارة الفعّالة
النعمة التي لا تُقاوَم
الضمان الأبديّ

وقد صارت هذه المبادئ اللاهوتيّة جوهرًا للفكر المُصلَح في أنحاء العالم، وقبلت آلاف الكنائس هذه المبادئ لاهوتًا لها. وصارت الكنائس المشيخيّة، والكلفينيّة، والمُصلَحة، وبعض من كنائس الأسقفيّين، والمعمدانيّين يؤمنون بهذه المبادئ. أمّا على النقيض من ذلك، فقد صارت الكنائس الوسليّة، والناصريّة، وغالبيّة المعمدانيّين، وكنائس پروتستانتيّة أخرى تُعْرف باسم الكنائس الأرمينيّة (نسبة ليعقوب أرمينيوس).

لكن، بالطبع، الواقع اللاهوتيّ، والتاريخيّ يؤكد أن الصياغات اللاهوتيّة التي ظهرت في القرن السابع عشر تحتاج إلى نظرة جديدة؛ إذ قد تغيّر الزمان والمكان. إذًا، المبادئ الخمسة كما جاءت في هذه الترجمة موضوعة أمام القارئ بهدف التفكير والتقرير. هذه هي مبادئ الفكر المشيخيّ، المميّزة له عن بقيّة المذاهب الأخرى. فهل نحن بالحق مشيخيّون؟ وإن رأى البعض، بعد الدراسة والتحليل، أن هذه الأفكار غير دقيقة لاهوتيًّا، فما هو البديل المطروح؟ وهل يتماشى مثل هذا البديل، وبشكل متناسق، مع بقيّة معطيات الفكر المشيخيّ؟

إنني أرجو، في النهاية، أن تنال هذه المحاولة بعض التقدير؛ فهي أول محاولة في اللغة العربيّة لتوضيح مميّزات الفكر المُصْلَح. وهذه المبادئ، كما قلت سابقًا، ليست وحيًا، لكنها أقرب نظام لاهوتيّ يعبر عن رسالة الكتاب المقدّس.

أقدّم هذه الدراسة لكلّ من يقول إنه "مشيخيّ" ليتأكد من هذه الهويّة اللاهوتيّة، ويثبت عليها، وينشرها؛ وأقدمها لمن يدّعي أنه "مشيخيّ" وهو لا يعلم مميّزات الفكر المشيخيّ، عساه أن يكون اسمًا على مسمى؛ وأخيرًا أقدمها لمن ليس هو "بمشيخيّ" ولا يدّعي أنه "مشيخيّ" حتى حين يعارض الفكر المشيخيّ يعارض عن علمٍ!

وفي النهاية، لا يفوتني أن أتقدّم بكلّ الشكر إلى الفاضل الشيخ نجيب وهبه، لما أسداه من ملاحظات على لغة النصّ المترجم، ومحتواه اللاهوتيّ. لقد كانت ملاحظاته عاملاً مهمًا في إخراج الكتاب بهذه الصورة. كذلك، يجب تقديم الشكر للزميل القسّ أشرف شوق، لقيامه بمراجعة لغة النصّ المترجم، والقيام بتصحيح ما اعتلّ منه. كما أشكر الصديق سلفي أمين على قيامه بقراءة النصّ المترجم، وتصحيح بعض عيوبه. كما أشكر الأخت چانيت ميشيل على قيامها بتصميم غلاف الكتاب وتنسيق صفحاته.

كذلك يجب تقديم الشكر لمؤسسة Baker Book House على منحي تصريحًا بنقل الفصول الخمسة الأولى من الكتاب الأصليّ، والصادر عن مؤسستهم المرموقة، كدارِ نشرٍ، عام 1980.

الفصل

الأول

الكنيسة

بين ضرورة الانفتاح

وحتميّة الحفاظ على الهويّة

الكنيسة بين ضرورة الانفتاح وحتميّة الحفاظ على الهويّة

قبل معالجة هذه القضيّة، يجب الوقوف على معاني وتعريفات مفتاحيّة وأوليّة؛ حيث يتلاشى، حينئذٍ، كلّ سوء فهم، ويزول كلّ لبس. وأرى أن يتم، أولاً، تعريف مصطلح الكنيسة، ثمّ الهويّة، والانفتاح. ولنبدأ بالأول.

ما هي الكنيسة؟

الكنيسة هي مؤسسة إلهيّة/إنسانيّة تهدف لخدمة غير أعضائها. أيّ أنها، بكلمات أخرى، كيان قائم لخدمة الآخر—أيًّا كان، وأينما وُجِدَ. هي، إذًا، كيان مرسليّ عماده الخدمة؛ وأساسه هو تكليف الرّبّ يسوع المسيح أن "اذهبوا إلى العالم أجمع..." (مر 16: 15). وخير تعبير عن هذه الحقيقة يأتي من المعنى الحرفيّ لكلمة "قدّاس" في الأصل اللاتينيّ. يرد المصطلح اللاتينيّ "*Ite, missa est*" ليعني "اخرجوا، لقد انتهى القدّاس." وكأن رد الفعل الطبيعيّ لانتهاء القدّاس (أو العبادة) هو الخروج برسالة الإنجيل للعالم ولكلّ الناس. وفي

هذا، بكلّ تأكيد، انسجام كامل مع تعليم السيد المسيح بشأن طبيعة الكنيسة المرسليّة.

لقد أكّد المسيح يسوع على توافق طبيعته وإرساليته مع طبيعة وإرساليّة الكنيسة. وذهب إلى حد أن أطلق على الكنيسة أحد ألقابه هو شخصيًّا، أقصد "نور العالم." بل أضاف على هذا اللقب وصف الكنيسة بأنها "ملح الأرض" (مت 5: 13-16). كلّ هذا يؤكد، بما لا يدع مجالاً للشك، أن الكنيسة مدعوة للتميز؛ فالملح مختلف في جوهره عن جوهر الطعام، وكذلك النور عن ظلمة العالم. وبهذا يصير للكنيسة الدور المحوريّ، والذي من خلاله تستطيع أن تغيّر المجتمع، وتؤثر فيه، وتجعله على شاكلة المسيح.

وللكنيسة وجهان، أو طبيعتان. فهي، من جانب، مؤسّسة "كاثوليكيّة." أيّ أنها تتمتع بصفة ترفعها فوق حدود الزمان والمكان، وهي ترتقي فوق كلّ الحضارات الإنسانيّة لتشملها، وتسمو بها. إنها كنيسة "جامعة" تضم في عضويتها من كلّ قبيلة ولسان وشعب وجنس.

أمّا من الجانب الآخر، فللكنيسة قاعدة محليّة تنطلق منها وتأخذ منها نقطة بداية في إتمام عملها المرسليّ، وخدمتها الرّسوليّة. وتحتّم هذه الطبيعة المحليّة على الكنيسة أن تكون "قرينيّة." فإن عاشت كنيسة محلّيّة في جلباب غير محليّ، لفقدت أصالتها، وصارت رسالتها غريبة المسمع، بعيدة

التطبيق. ومن واجب الكنيسة، وهو من أصعب الواجبات في الواقع، أن توازن بين طبيعتــها "الكاثوليكيّــة،" وطبيعتــها "المحليّة." الانحراف نحو هذه الطبيعة على حساب تلك يمكــن أن يكون بداية انهيار، وعدم الاتزان غير محمود العواقب.

ما هي الهويّة؟

الهويّة هي الوعي بالذات في الزمان والمكــان، هــي إدراك "الأنا" هنا والآن. هي كلّ ما يجعل للإنسان لونًا مميزًا، وشكلاً به يختلف عن غيره من البشر. وتأخــذ الهويّــة مــن معطيات كثيرة عناصر تميزٍ بها يتلون الإنسان، فلا يصير ممتزجًا بغيره، فاقدًا الاختلاف.

ويشمل هذا الوعي مجموعة من القــيم، والمبــادئ، والعقائد. فمثلاً الهويّة الدينيّة تجعل هذا الشخص "مسيحيًّا" إن هو آمن بالصليب، والثالوث، ولاهوت المسيح، والكفــارة، وتجعل آخر "مسلمًا" إن آمن بالله، وبرسله، وبأنبيائه، وكتبه، وباليوم الآخر، وهلم جرّا... فلا يجوز أن يكون مــن آمــن بالصليب يهوديًّا، أو مسلمًا. ولا يكون من يؤمن بوحدانيّة الله المطلقة المجرّدة مسيحيًّا.

وحتى داخل الهويّة الدينيّة الواحدة، والخطوط العريضة المميّزة لها، توجد مجموعة محدّدات تجعل لمجموعة من النــاس "هويّــة طائفيّة" معينة. وهكذا تمتاز تلك الطائفة عن بقيّة الطوائــف

الأخرى من نفس الديانة. مثلاً، هناك داخل الديانة الإسلاميّة طائفة الشيعة وطائفة السنة. ولكلّ طائفة مميزات تختلف بها عن الأخرى. وكذلك الحال في المسيحيّة، فنجد الكاثوليكيّة، والأرثوذكسيّة، والـپروتستانتيّة.

وتتميز المجموعة الأولى بمدى تمسكها بالتقليد الكنسيّ، وبالسلطة اللاهوتيّة لبابا روما. أمّا المجموعة الثانية، فتتميّز عن بقيّة المسيحيين بما عُرِفَ عنها من موقف لاهوتيّ حيال طبيعة المسيح. أمّا الـپروتستانت، فقد آمنوا، كجماعة، بحريّة الضمير المسيحيّ، وبالإيمان كوسيلة وحيدة للخلاص. ومن الـپروتستانت تتشعب العديد من المذاهب الدينيّة نتيجة لمجموعة من المفاهيم اللاهوتيّة الخاصة بتفسير الكتاب المقدّس، وتفسير التاريخ الإنسانيّ، والاسخاتولوچيّ (علم دراسة الأمور الآخرة).

ويمكن أن نزعم أن ثمة اتجاهيْن رئيسييْن في كلّ الفكر الـپروتستانتيّ: الاتجاه الأول يتمثل في الذين يؤمنون بسيادة الله في الخلاص، والاختيار. وبالطبع فأفضل مجموعة تمثل هذا الاتجاه هي الكنيسة المشيخيّة/المُصْلَحة. أمّا الاتجاه الآخر، وهو الاتجاه الذي يعوّل كثيرًا على دور الإنسان في أمر الخلاص، فيشمل، غالبًا، ما تبقى من الـپروتستانت. أو، كي نستخدم لغة تتماشى مع محتوى هذا الكتاب، فهناك الكالڤينيّون/المُصْلَحون، وهناك الأرمينيّون.

مرة أخرى، ثمة مواقف لاهوتيّة تميّز كلّ طائفة عـــن الأخرى. فمثلاً، مستبعدٌ جدًّا أن نجد كلـــڤينيًّا يعتقد بهــلاك المؤمن؛ وبنفس قدر الاستبعاد نجد أنه من الصـــعب حقًّـــا أن يؤمن أحد أتباع كنيسة نهضة القداسة بعقيدة الاختيار. الأمر، في الواقع، لا يتعلق بطبيعة الكنيسة، أو ظروفها الاجتماعيّـــة، بل هو يتماشى مع مجموعة المعطيات اللاهوتيّة التي تميّزها عن غيرها. وتؤكد هذه الاختلافات على أن لكلّ كنيسة مجموعة من العقائد التي تتناسق فيمَ بينها لتشكل في النهايـــة هـــيكلاً محدَّدًا ومحدِّدًا. والعيب ليس في الاختلاف الطـــائفيّ، لكـــن العيب، كلّ العيب، في عدم الاتساق اللاهوتيّ.

ثمة أمثلة توضّح أزمة عدم الاتساق اللاهوتيّ هـــذه. هناك العديد من المؤمنين يعتقدون بأن التمسك بعقيدة واضحة المعالم إنما هو ضربٌ من ضروب التعصب، وسمة غلبت علـــى عصور الظلام! بالطبع هذا التقييم للعقيـــدة تقيـــيم ســـاذج، وضحل. وحتى إن كان البعض قد تحجّر، وتجمّد نتيجة تمسكه بالعقيدة، أو إن كانت العقيدة لم تلق ترحابًا أو أرضًا خصـــبة في مكان ما، فليس هذا عيب العقيدة ذاتها.

في الافتراض الأول، جاء العيب في ذات الشـــخص المتحجّر، ذي القلب الذي حوّل العقيدة سيفًا يقطع به رقاب من خالفوه! مثل هذا الاتجاه التكفيريّ لا علاقة له بأيّة عقيدة سليمة. إن عقيدة هذا الشخص انغلاقيّة، انعزاليّة. أمّا العقيدة

الحقّة فتدعو لتقبّل الآخر واحترام الاختلاف معـــه. أمّـــا في الافتراض الثاني، ففشل تطبيق نظام ما أو عقيدة ما لا يعني أن النظام فاسد. فالديمقراطيّة، مثلاً، ليست فاسدة. لكن انظـــر كيف تطبّق الديمقراطيّة في دول إرهابيّة التوجه، أحاديّة النظر، استبداديّة السياسة!

ولنعد مرة أخرى إلى قضيّة الاتساق اللاهوتيّ. فـــلا يُعْقَلُ أن ينادي أحدهم بالضمان الأبديّ للمؤمن وفي نفـــس الوقت ينكر الاختيار. هذان أمران متناقضان تمامًـــا! فكيـــف للمؤمن أن يأمن لمستقبله الأبديّ إن كان الخلاص يعتمد عليه هو، وليس على عمل نعمة الله؟ أو كيف ينادي البعض بسيادة الله في الكون، وبعقيدة العنايـــة الإلهيّـــة، وفي ذات الوقـــت ينكرون المعجزات في العصر الحالي؟ إن المقصود بـــالمعجزات هنا هو، بالطبع، تـــدخل الله، كلـــي القـــدرة، في مجريـــات الأحداث، لتعمل كلّ الأشياء معًا للخير. وليس المقصود هنـــا ما يشار إليه على أنه "معجزات" يقوم بها هذا الواعظ أو ذاك بطريقة هزليّة—أقلّ ما توصف به أنها "مسرحيّة." كلّ شيء ممكن عند الله، وغير المستطاع عندنا ما هو إلا نشـــاط إلهـــيّ "عادي" جدًّا. إن المعجزات هي تسمية بشريّة لما عجزنا نحـــن عن فهمه، أو القيام به؛ أمّا بالنسبة لله، فكلّ هذه الأمور هـــي تعبير عن كونه إلهًا كليّ القدرة، خالقًا، ومعتنيًا—لا أكثر! ثمّ إنه لا يُعْقَلُ أن يؤمن أحدهم بأن معجزات المسيح ما كانـــت

إلا شفاءًا من "أمراض نفسيّة" عانت منها الجموع آنذاك، وفي نفس الوقت يؤمن بقيامة المسيح يسوع من الأموات. هـذان أمران لا يتفقان!

والحقيقة، إن مزاعم الانفتاح والتعدديّة، ما هـي إلا "ميوعة لاهوتيّة." فشتّان الفارق بين الانفتاح الناتج عن معرفة واعية بالذات، وبالآخر، وبقدر الاتفاق والاختلاف بينـهما، وبين الانفتاح الذي "يقبل" الكلّ دون وعي، أو إدراك بأيّـة حدود أيديولوچيّة.

لكن ما فائدة الهويّة اللاهوتيّة؟ بالطبع هـذا سـؤال مشروع جدًّا. ويمكن أن نرى ضرورة تحديد الهويّة اللاهوتيّـة في أنها تؤكد على تميّز الجماعة عن الآخرين. وهي أيضًا مـا يجعل الجماعة متماسكة، واضحة المعالم، واحدة في توجهها الإرساليّ. ويمكن تشبيه هذا الموقف بفريق كـرة القـدم. إن "كلّ" الفريق يحب ناديه. و"كلّ" أعضاء الفريق يلبسون نفس لون النادي، ولا يختلف لباس لاعب عن الآخر. "الكلّ" يسعى نحو مرمى الفريق الآخر. "كلّ" أفكار اللاعبين تتجه نحو الفوز على الفريق الآخر. تخيّل معي أن فريقًا ما بدأ اللعب، وكـلّ لاعب له لباس مختلف عن غيره من اللاعبين في نفس الفريق، تخيّل أن يكون لكلّ منهم هدفه المختلف عن هدف الآخر. لن تصبح المباراة مباراة كرة قدم. بل ما أشبهها بسـاحة كـبيرة يجري فيها اللاعبون، وكلّ يحاول تحقيق هدف خاص به!

وبالقطع، فإن تلك ليست دعوة "للنسخ." فالنسخُ مسخٌ. ليس مطلوبًا من أبناء الطائفة الواحدة أن يكونوا نسخًا من بعضهم البعض. هناك مجال للاختلاف، والتعدديّة—هذه سُنّة الحياة. لكن كلّ اختلاف يحدث إنما يجب أن يتم داخل إطار فكريّ محدّد المعالم.

ولنعد مرة ثانية لمثل كرة القدم، حيث لا يعقل أن يكون "كلّ" الفريق "حارس مرمى." ويستحيل أن يكون "كلّ" الفريق "رأس حربة." أو "دفاعًا." هناك مجال للتعدديّة داخل الإطار الواحد. فكلّ لاعب له مكان ما في أرض الملعب، لكن لكلّهم هدفًا واحدًا، اتفقوا عليه، والتزموا به.

ويمكن أن نطلق على هذا المفهوم مصطلح الـ Framework أو "الإطار العام." إن غياب الإطار العام غاية في الخطورة، وهذا الغياب يعبّر عن "ميوعة لاهوتيّة" من شأنها أن تحوّل الكنيسة إلى كيان هزيل، ضعيف، وغير موّجَه. ويبدو مستحيلاً أن تتخذ الجماعة قرارًا إن كانت لا تتمتع بإطار فكريّ محدَّد. كيف لكنيسة يؤمن نصف أعضائها بحتميّة العمل المرسليّ، بينما النصف الأخر يرى أن الإرساليّة ما هي إلا "مضيعة وقت،" أن تتخذ قرارًا جوهريًّا خاصًا بالكرازة؟!

إذًا، فالإطار الواضح المعالم، المتفق عليه يساعد الجماعة على اتخاذ قرارات حاسمة ومهمة، ويعطيها نجاحًا في كلّ ما تعمل. مرة أخرى، ليس المقصود من الإطار الواحد أن

يصير أفراد الجماعة الواحدة نسخًا من بعضهم البعض. فدائمًا هناك مكان للتنوع داخل الإطار الواحد.

ما هو الانفتاح؟

إن الانفتاح، قبل أن يكون توجهًا من شخص نحو الآخر، هو توجه ووعي الفرد نفسه بطبيعة الحياة، والإقرار بالاختلاف فيها. فعلى الشخص، قبل أن يقبل غيره، أن يرى مدى التعدد والتباين الموجود من حوله. والقبول هذا مكلف بالطبع. فمن السهل أن يغمض الشخص عينه على الحياة من حوله، ويصير منعزلاً، أو أن يرفض التعايش مع غيره، ويسعى بكلّ جهده للعيش مع من يشابهه فقط. لكن القبول عمليّة تتطلب جهدًا كبيرًا.

أمّا إذا تحدثنا من منظور لاهوتيّ، فإن الإرساليّة تعتبر أفضل نموذج للانفتاح على الآخر، فهي في جوهرها خروج من دائرة الراحة الذاتيّة. هي ذهابٌ مكلّفٌ قد يدفع فيه المرء حياته ثمنًا لانفتاحه. البعض يتكلف مالاً، وآخرون يتكلفون وقتًا كثيرًا، وغيرهم يدفعون أغلى شيء: الحياة ذاتها!

والآن، كيف نوفّق بين ضرورة الانفتاح على الغير، وحتميّة الحفاظ على الهويّة؟ أرى أن المشكلة الحالية، بكلمات مختصرة، تتمثل في ميوعة عقيدة الكنيسة وعدم وضوح معالمها.

ولكن ما هي أهم مميزات الكنيسة المشيخيّة/المُصْلَحة من الناحية اللاهوتيّة؟ ما هي العقيدة/العقائد التي تؤمن بها الكنيسة المُصْلَحة فتميّزها عن غيرها من المؤمنين البروتستانت؟

الله... كلمته... مجده

يعتمد الفكر المُصْلَح في جوهره على تقدير عال لكلمة الله. فالفكر المُصْلَح يضع كلمة الله فوق كلّ مصدر، وكلّ تشريع، وكلّ تقليد. وهكذا فلا تستمد الكنيسة المُصْلَحة أيًّا من تعاليمها من أيّ مصدر عدا كلمة الله المعصومة، والتي هي المصدر الأول والأخير للإيمان والأعمال. ويؤمن الفكر المُصْلَح بأن كلمة الله هي الوحي الذي أعطاه الله/الروح القدس للكنيسة عبر عصور مختلفة، وعبر قنوات بشريّة متعددة، وفي قرائن تاريخيّة وثقافيّة متباينة. إلا أن عنصرًا واحدًا ميّز كلّ الكتاب المقدّس من البداية حتى النهاية: قصة فداء الله للإنسان. وفي هذه القصة لا يعلن الله عن خطته لفداء الإنسان فحسب، بل يعلن للجميع عن مجده المعلن في الخليقة، وعن شخصه المتجلي في كلّ الكون كربّ وخالق. إن قصة الكتاب المقدّس، في المقام الأول، هي قصة مجد الله.

ومجد الله هو العمود الفقريّ في الفكر المُصْلَح. فهو فكر يتمركز لا على اجتهادات بشريّة، ولا يجد في الإنسان مركزًا له. ولا يحاول الفكر المُصْلَح أن يجعل من مبادئ فلسفيّة

أو إنسانيّة محورًا لانطلاقه في عمل اللاهوت. لكنه فكر يـرى مجد الله معلنًا في كلّ ما صنع تعالى، وفي كلّ كلمة أوحى بها إلى الإنسان، وفي كلّ عمل أخذ الله على عاتقه أن يكمّله.

وهنا لا يجب أن يستنتج أحد أن الإنسان ليس له المكانة المناسبة في الفكر المُصْلَح؛ بل على العكس، فلو لم يتدخل الله، بنعمته، لما كان للإنسان أيّة مكانة كريمة. وقد أعلن الله بنفسه عن مجد الإنسان، ومكانته الفريدة في الخليقة؛ إذ خلقه على صورته وكشبهه، ذكرًا وأنثى خلقهما. إذًا، فمكانة الإنسان الحقيقيّة هي في الله نفسه، وفي الوجود فيه، وفي الفداء الذي أعطاه الله للإنسان. وخارج الله لا يوجد للإنسان أيّ وجود، أو حياة، أو كرامة. إننا به نحيا، ونتحرك، ونوجد. هو مصدر الحياة، ومعطيها. وكلّما ابتعدنا عنه، انتزعت منا الحياة، وصارت أيامنا مجرد تاريخ منعزل عن باقي الأحداث، وصارت سنونا مجرد أرقام نحياها—بعيدًا عن مصدر كلّ حياة.

الله "سيد الأرض كلها"

ثمّ إن الفكر المُصْلَح يقوم أيضًا على مبدأ سيادة الله. وسيادة الله مقصود بها سلطان الله المعلن على كلّ الخليقة، وعلى كلّ الكون. إن الله هو "سيد الأرض كلها." هو من يدير كلّ شيء، ويحرك كلّ شيء، ويوجّه كلّ شيء. ففي الفكر المُصْلَح، الله هو حقًّا الله. ليس هناك، بالطبع، تقليل من

قيمة الشر والفساد والشيطان. فهذه كلها واقع، لا يختلف عليه اثنان. لكن كلّها تخضع، وبشكل مطلق، لسيادة الله. فهو من تقف يداه وراء كلّ حدث، ولا يخرج أيّ فعل عن دائرة سلطانه، ويده هي العليا في مملكة الناس. وكثيرًا ما يظن المؤمنون أن سلطان الله معلن داخل الكنيسة، أو في حياة المؤمنين فحسب، أمّا باقي العالم فهو ليس تحت دائرة سلطان الله، وهذا بالطبع خطأ فادح؛ فسلطان الله وسيادته حقيقتان معلنتان في كلّ مجال. ويخضع الأبرار والأشرار، على حد سواء، ليد الله. ويحرّك الله الأحداث، مرّها، وحلوها.

ولا يجد المرء كلمات أصدق تعبيرًا في هذا الشأن من كلمات اللاهوتيّ المُصْلَح أبراهام كَيْبَر Abraham Kuyper، والذي كان فيلسوفًا، ولاهوتيًّا، ورجل سياسة (كان كَيْبَر رئيس وزراء هولندا في الفترة من 1901–حتى 1905). قال كَيْبَر، "لا يوجد سنتيمتر واحد في كلّ هذا الكون إلا ويقول عنه المسيح، 'هذا ملكي.'"[i] هذه هي سيادة الله، وهذا هو بالفعل سلطانه المعلن فوق كلّ سلطان، ويده التي هي أقوى وأعظم من أيّة قوة، ومخطّطه الذي لا يمكن أن يفشل أبدًا.

لقد لاحظت شخصيًّا أمريْن متناقضيْن داخل كنيستنا المحبوبة، الكنيسة الإنجيليّة بمصر. أول ما لاحظت هو وجود مجموعة من القساوسة، والعلمانيّين الذين يحلو لهم القول بأن فلانًا أو علانًا ليس "مشيخيًّا." وتصدر هذه الأحكام، في

غالبها، ليست على الإيمان بمجموعة عقائد تخالف الفكر المشيخيّ، بل على مجموعة ممارسات مرتبطة بالعبادة وأسلوبها، يرى هؤلاء أنها ممارسات غير مشيخيّة. فمثلاً إن رأى أحدهم شخصًا يصلي في الكنيسة، ويرفع يده أثناء الصلاة، أو يصفق أثناء الترانيم، يصرّح هذا، وبشدة، بأن ذلك السلوك ليس مشيخيًّا. وقد فات هذا الشخص أن رفع الأيدي، والتصفيق، وما شابه هي أصلاً أمور ثقافيّة بحتة. فمثلاً، إن نظرنا للمشيخيّين في كوريا الجنوبيّة أو أفريقيا لنراهم—بحسب اعتقاد من يسرعون بإصدار الأحكام—كارزماتيين، لا علاقة لهم بالمشيخيّة. لكن الواقع يقول إنهم آمنوا بالفكر المشيخيّ—عقيدةً، وعبروا عن هذا الإيمان بأن مزجوا ثقافتهم المحليّة مع إيمانهم.

ثمّ تزداد الطينة بَلّةً حين يختصر البعض العقيدة المشيخيّة في عقيدة واحدة، أو قضيّة لاهوتيّة بعينها. مثلاً، أثار البعض ولمدة طويلة قضيّة مواهب الروح القدس، كعلامة أو موقف لاهوتي يُظْهِرُ المشيخيّ من غيره. وكان الاستنتاج غير الدقيق هو أن من يتكلم بألسنة، أو يؤمن بالمعجزات فهو ليس مشيخيًّا.

الغريب أنه في ذهن هؤلاء، الذي يؤمن بعقيدة التعيين السابق والتكلم بألسنة فهو ليس مشيخيًّا، والذي يؤمن بانتهاء المعجزات ويرفض عقيدة الاختيار فهو مشيخيّ، لا غشّ فيه!

إن التناقض هنا يدعو للسخريّة! فكيف يكون مشيخيًّا مـــن ينكر الاختيار؟! وكيف يمكن لنا أن نختزل الفكر المشيخيّ في الموقف اللاهوتيّ من المواهب المعجزيّة للـــروح القـــدس؟! لا يتكلم كاتب هذه السطور بالألسنة، لكنه يرى أنه من غــــير المعقول أن تعد قضيّة الألسنة—والتي فيها تباين كـــبير بـــين المشيخيّين أنفسهم في كلّ أنحاء العالم—حكمًا على مشيخيّة أحدهم من كارزماتيته. إن الأمر ليس بهذه البساطة، إطلاقًا.

الفصل

الثاني

الإنسان بعد السقوط

الفساد الكلّيّ للطبيعة البشريّة بعد السقوط

الإنسان بعد السقوط

الفساد الكليّ للطبيعة البشريّة بعد السقوط

هناك العديد من المفاهيم المغلوطة حول هذا التعليم، لذا أرى أنه من الضروريّ توضيح المعنى الحقيقيّ للتعليم الخاص بفساد الطبيعة البشريّة بعد السقوط.

الفساد الحادث للطبيعة البشريّة بعد السقوط ليس مطلقًا

حين ترتبط كلمة "فساد" مع كلمة "كليّ،" قد يفهم البعض أن الإنسان قد صار فاسدًا بشكلٍ مطلق، وأنه صار شريرًا كالشيطان نفسه! لكن المقصود بالفساد الكليّ، الذي حلّ بالطبيعة البشريّة بعد السقوط ليس هو الفساد المطلق. فالفساد المطلق يعني أن الإنسان يعبّر عن شره بما لا يقاس، وأن ليس فقط أفكاره، وكلماته، وأعماله صارت شريرة؛ بل إنه—هو نفسه—صار شريرًا إلى أقصى درجات الشر.

أمّا الفساد الكليّ، على العكس من ذلك، فلا يعني أن الإنسان قد صار فاسدًا وشريرًا بأقصى ما يمكن أن يكون. ليس المقصود أن الإنسان لا يمكنه ارتكاب جريمة أكثر شرًا.

بل بالأحرى، فكلّ ما يعمل صار فاسدًا. لقد أفسد الإنسان كلّ إمكاناته، وكلّ مجالات حياته، وصار عاجزًا عن فعل أيّ صلاح حقيقيّ.

وللتوضيح أقول إن الأطفال حين يكذبون فإنهم غالبًا ما يكذبون أكاذيب صغيرة. من الممكن، بالطبع، أن تكون هذه الأكاذيب أكثر سوءًا. ومع ذلك فإن فعلتهم هذه خطأ، ولا يوجد أيّ صلاح في كذبهم! وبالتالي، فهم أشرار، ولكنهم ليسوا أشرارًا بشكل مطلق، كما لم يبلغ شرّهم أقصى درجاته.

أو فَكِّرْ مثلاً فيهم حين يضربون بعضهم البعض، غالبًا ما يفعلون هذا إمّا بالضحك على بعضهم البعض، أو بقصد الإيذاء. لكن يمكن لطفل أن يفقأ عين آخر بأداة حادة، أو أن يضع إبرًا تحت أظافر زميله! يطلق بعض البالغين على غيرهم ألقابًا مثل "حمقى" أو "حثالة،" لكن يمكنهم قتلهم بدلاً من ذلك.

لقد كان هتلر طاغية متوحش؛ لكنه، بطلب من أحد الكهنة، أبقى على سكان بعض القرى الفرنسيّة.

وترك أكثر من عشرين شخصًا فتاة تدعى (كتي جينوفيس) تموت أمام أعينهم في مدينة نيويورك دون أن يفعلوا شيئًا. إن هذه اللامبالاة والتردد في مساعدتها لهو أمر مكروه،

ومع ذلك فقد كان بإمكانهم أن يقتلوها. لكنهم لم يقتلوهـــا. وبالتالي، فلم يصل شرهم إلى أقصى درجاته.

أثناء حكم الملك شاول، حدث أن روح الرّبّ فارقه، وفي المقابل سكنه روح رديء (1صـــم 16: 14)، بكلمـــات أخرى فقد أمضى الفترة الأولى من حكمه دون أن يصل شرّه إلى أقصى درجاته كما حدث في الفترة الأخيرة.

حتى أولئك الذين أوشكوا على ارتكاب الخطيّة التي لا تغفر (عب 6: 4- 8)، لم يتصـــرفوا، وفي وقـــت واحـــد، بطريقة شديدة القبح، بل "اســـتناروا...وذاقـــوا...وصـــاروا شركاء..."

دائمًا ما نجد العديد من المتعبدين داخل الكنيسة ممـــن لهم صورة التقوى ولكنهم ينكرون قوتها (2 تيم 3: 5)، حـــتى إن بعضهم، على شاكلة يهوذا الإسخريوطيّ، يعظ ويجـــري معجزات. لقد كان بإمكان هؤلاء أن يضعوا جانبًا كلّ ما هو طيب، وأن يضطهدوا الآخرين، لكنهم لم يفعلوا. وكمـــا أن خطايا الإنسان ليست شريرة إلى أقصى درجة ممكنة، كذلك فإنها ليست شاملة إلى أقصى درجة ممكنة. فالإنسان الواحد لا يرتكب كلّ الخطايا الممكنة. كلّنا نكسر وصيّة الله بأفكارنـــا الشريرة. لكننا لا نكسر، دائمًا، نفس هذه الوصايا بالعمل.

فعلى سبيل المثال، كلّنا تعرضنا لمواقف كرهنا فيهـــا الغير، لكننا لم نقتل من كرهناهم. ومعظمنا اشتهى لكن ليس

كلّ من اشتهى ارتكب خطيّة الزنا الفعليّة. إن السبب في هذا "الاعتدال" هو أن الله في نعمته العامة (تلك النعمة التي تشمل الكلّ بدون استثناء)، إنما يحدّ الشرّ الذي يرتكبه البشر. نقرأ، على سبيل المثال، في سفر التكوين أصحاح 20 عن أبيمالك الذي ارتكب خطايا أقل مما كان من الممكن أن يرتكب (أي أن خطيئته لم تصل إلى أقصى درجاتها)، وذلك لأن الله منعه من ارتكاب الفحشاء مع سارة، زوجة إبراهيم. كتب بولس لكنيسة تسالونيكي يقول "لأَنَّ سِرَّ الإِثْمِ الآنَ يَعْمَلُ فَقَطْ، إِلَى أَنْ يُرْفَعَ مِنَ الْوَسَطِ الَّذِي يَحْجِزُ الآنَ" (2 تس 2: 7).

الفساد الكلّي لا يعني غياب الصلاح النسبيّ عند الإنسان

عرفنا أن الإنسان غير المؤمن لا يرتكب الخطايا بطريقة مطلقة، ولا يصل شرّه إلى أقصى درجة ممكنة، وأنه لا يستطيع فعل كلّ الشرّ الممكن فعله. إنه من الصواب أن نقول إن الإنسان غير المؤمن قادر على فعل بعض الأعمال الصالحة، لكن هذا الأمر يستوجب بنا أن نصل لتعريف كلمة "صلاح."

يقدم أصول الإيمان الهيدلبرجيّ تعريفًا واضحًا لكلمة "صلاح." في إجابة السؤال الخاص بتعريف أعمال الخير أو الصلاح، يقول "هي الأعمال النابعة من إيمان حقيقيّ. بحسب وصايا الله، ولمجده وحده" (بند رقم 91). إذًا، كما يعلّم أصول الإيمان هذا، فثمة عناصر تلزم أن تصحب أيّ عمل

صالح حتى يعتبر بالحق عملاً صالحًا، وهي: الإيمـــان، تبعيّـــة وصايا الله، السعي وراء مجد الله. أمّا العمل الصالح النسبيّ، من الناحيّة الأخرى، فمن المحتمل أن يكون له مظهـــر خـــارجيّ طيب دون أن يكون نابعًا من إيمان أصيل، سعيًا وراء مجد الله. وهكذا، فيمكن للغير المؤمنين أن يقوموا بأعمال صالحة نسبيّة، مع أن طبيعتهم أصابها الفساد الشامل.

افترض، على سبيل المثال، أن أحد غير المؤمنين سرق 5000 دولارًا من إحدى البنوك، وبعدها كتب شيكاً قـــدره 10000 دولارًا لهيئة الصليب الأحمر حتى ما ينال بعض المديح. بحسب الظاهر، عطيته هذه تبدو متناسقة مع مطالب وصـــايا الله. غير أنها لا تعبر عن إيمان صالح، بل هي شريرة حيث إنها لا تسعى لمجد الله. إنها عمل صالح نسبيًّا.

لقد كان ألبرت شوتيزر مثالاً لشخص أنكر الحقـــائق الأساسيّة في الكتاب المقدّس، لكنه في ذات الوقـــت خَجَّـــل الكثيرين من المؤمنين عن طريق محبته وإحسانه. لقد ضـــحى بأعمال مشهورة كان يقوم بها، وترك الحضارة الأوروبيّة حتى ما يعمل ويتألم مع السود في قارة أفريقيا. كان فيلسوفًا وعالماً متخصّصًا في دراسات العهد الجديد، وعازف أورج مشهور. لكنه شعر أنه مثل من يلبس الأرجـــوان والكتـــان الصـــافي، ويعيش في رفاهية يومًا بعد يوم طالما أن هناك الكثيرين مـــن المحتاجين للقوت اليوميّ في أفريقيا. لقد كانت حياتـــه مثـــالاً

رائعًا لشخص أدى خدمة مضحيّة جدًّا لخدمة المرضى. وهكذا صنع أعمال رحمة كثيرة، ولكنها عُملت بشكل نسبيّ. ولقد تماشت أعماله هذه-على أقل في خارجها-مع قانون المحبة.

ولمعرفة أمثلة أخرى، فَكِّرْ مثلاً في شخص غير مؤمن ألقى بنفسه على قنبلة صغيرة مظهرًا بذلك شجاعة كبيرة وتضحيّة من أجل إنقاذ حياة أصدقائه. أو فَكِّرْ في شخص آخر يلقي بنفسه أمام شاحنة مسرعة حتى ينتشل طفلاً معرّضًا للخطر. أو فَكِّرْ في وثنيّ يجدّف على الله، ولكنه يعطف على الفقراء، والمحتاجين. أو فَكِّرْ فيمن يتبرع بثروة كبيرة من أجل إنشاء مركز رعاية صحيّة. أو فَكِّرْ في شخص آخر يتبرع لإحدى الجامعات بمبلغ كبير من المال نظير إنشاء مبنى العلوم. أو فَكِّرْ في ذلك الشخص المسن الذي يسكن بالقرب منك، والذي لا يذهب إلى الكنيسة إطلاقاً لكنه يحظى باحترام الكثيرين، ومنزله نظيف وأنيق، وهو على علاقة طيبة بزوجته، ويقوم بالعطف على الأطفال، ولا تراه يحلف البتة. ينقص كلّ هذه الأمثلة عنصران هامان: الإيمان بيسوع المسيح، والسعي وراء مجد الله. وهكذا فهذه الأعمال هي أعمال صالحة نسبيًّا.

يعطي الكتاب المقدّس أمثلة عن الأعمال الصالحة نسبيًّا تلك. فعلى سبيل المثال، يذكر العهد القديم ثلاثة ملوك ممن لم يخافوا الله: ياهو، ويهوآش، وأخزيا. كلّ هؤلاء لم يخافوا الله. يقول الله عن الأول: "وَقَالَ الرَّبُّ لِيَاهُو: 'مِنْ أَجْلِ

أَنَّكَ قَدْ أَحْسَنْتَ بِعَمَلِ مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي عَيْنَيَّ، وَحَسَبَ كُلِّ مَا بِقَلْبِي فَعَلْتَ بِبَيْتِ أَخْآبَ، فَأَبْنَاؤُكَ إِلَى الْجِيلِ الرَّابِعِ يَجْلِسُونَ عَلَى كُرْسِيِّ إِسْرَائِيلَ" (2 مل 10: 30). أمّا عن الثاني، فنقرأ "وَعَمِلَ يَهُوآشُ مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ كُلَّ أَيَّامِهِ الَّتِي فِيهَا عَلَّمَهُ يَهُويَادَاعُ الْكَاهِنُ" (2 مل 12: 2). ونقرأ أيضًا نفس الكلمات عن الملك الثالث: أخزيا. لقد قام هؤلاء الملوك بعمل ما يرضي الله، مع أنهم كانوا من غير المؤمنين.

أمّا في العهد الجديد، فالمسيح يتحدث عن فاعلي الأعمال الحسنة من غير المؤمنين حين أوصى التلاميذ بأن يحبوا ليس فقط من يبادلونهم الحب، بل حتى الأعداء "وَإِذَا أَحْسَنْتُمْ إِلَى الَّذِينَ يُحْسِنُونَ إِلَيْكُمْ فَأَيُّ فَضْلٍ لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ هَكَذَا" (لو 6: 33). وكأن المسيح يقول بأن غير المختارين يقومون بأعمال صالحة. ولكن، مرة أخرى، لا يجب أن يُفهم من هذا أنه بإمكان غير المؤمنين فعل الأعمال الصالحة "الحقيقيّة."

ويكتب الرسول بولس للكنيسة في روميّة قائلاً "لأَنَّهُ الأُمَمُ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمُ النَّامُوسُ مَتَى فَعَلُوا بِالطَّبِيعَةِ مَا هُوَ فِي النَّامُوسِ فَهَؤُلاَءِ إِذْ لَيْسَ لَهُمُ النَّامُوسُ هُمْ نَامُوسٌ لأَنْفُسِهِمِ" (2: 14). إنهم لا يعرفون المسيح يسوع مخلّصًا وربًّا، وليس عندهم شريعة العهد القديم، ومع ذلك فإن بعض ما يقومون

به يتماشى، على الأقل في ظاهره، مع شريعة الله—هذه هي مجموعة أمور مرضيّة عند الله، ولكن بشكل نسبيّ.

وهكذا نرى أن الفساد الكليّ للطبيعة البشريّة بعد السقوط لا يعني أن الإنسان قد صار نموذجًا للشيطان. ففي الواقع، لا يرتكب الإنسان كلّ الخطايا الممكن ارتكابها، كما أن أولئك الذين يرتكبون الخطايا لا يرتكبونها إلى أقصى حد ممكن. بالإضافة إلى ذلك، نرى أن الكثيرين يمارسون أعمالاً حسنة بشكلّ نسبيّ. ألا يجب أن نكون شكورين لله من أجل نعمته العامة هذه، والتي من خلالها يكبح جماح الشرّ ويمكّن الأشرار من فعل أعمال صالحة نسبيًّا!

ما هو الفساد الكليّ؟
الإنسان يخطئ وبشكل مستمر

مع أننا أكدّنا أن الإنسان الطبيعيّ، أي ذاك الشخص الذي لم ينل التجديد بعمل الروح القدس، يمكنه فعل أعمال حسنة نسبيًّا، فإنه من الضروريّ أن نؤكد من جديد على أن هذه الأعمال الصالحة نسبيًا ليست بالضرورة "صالحة" في نظر الله. والسبب في ذلك، كما نتعلم من إقرار الإيمان، هو غياب دافعيّ الحب والإيمان. وفي الواقع فإن الأعمال الصالحة النسبيّة هي في حقيقتها لا شيء سوى خطيّة وشرّ!

إن الفساد الكليّ يبيّن أنه ليس بإمكان الإنسان

الطبيعيّ فعل الصلاح بحسب رأي الله. وبالتالي، فالإنسان يرتكب المعصية دائمًا. ويشهد الكتاب المقدّس على هذا الأمر بشكل واضح.

نقرأ في سفر التكوين "وَرَأى الرّبّ أنّ شَرَّ الإنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأرْضِ وَأنّ كلّ تَصَوُّرِ أفْكَارِ قَلْبِهِ إنَّمَا هُوَ شرِّيرٌ كلّ يَوْمٍ" (6: 5). لاحظ كيف يصف الكتاب المقدّس الشرّ أنه عظيم، ويخترق كلّ شيء في حياة الإنسان. لقد صار الإنسان شريرًا ليس فقط في أعماله بل في "كلّ تَصَوُّرِ أفْكَارِ قَلْبِهِ." لقد كانت هذه الدوافع الداخليّة، ومازالت، كما يقول الكتاب المقدّس، شرًّا. وهكذا ستظل لأجيال. تضيف كلمة الله في تكوين 8: 21 أن "تَصَوُّرَ قَلْبِ الإنْسَانِ شرِّيرٌ مُنْذُ حَدَاثَتِهِ." إذًا ففساد الإنسان موجود منذ حداثته، لا حين بلغ الإنسان عمرًا كبيرًا!

ويضيف إرميا قائلاً "اَلْقَلْبُ أخْدَعُ مِنْ كلّ شَيْءٍ وَهُوَ نَجِيسٌ مَنْ يَعْرِفُهُ!" (إر 17: 9). إن شهادة معظم المؤمنين تتفق مع هذه الكلمات. فحتى بعد أن يصير الإنسانُ مؤمنًا، وهكذا تصبح له معرفة أفضل، فإنه يتعجب من قلبه المليء بالرياء، والخداع، والشر.

ويؤكد كاتب سفر المزامير على أن هذا الأمر ينسحب حتى على الأطفال، فيقول "هَئَنَذَا بِالإثْمِ صُوِّرْتُ وَبِالْخَطِيَّة حَبِلَتْ بِي أُمِّي" (مز 51: 5). بالطبع، هذا لا يعني

أن الجماع الجنسيّ شرّ، بل إن الإنسان ومنذ الحبل بـه هـو ملوث بالخطيّة، بسبب خطيّة آدم الأولى، وسقوطه. ويحـاجّ الرسول بولس بكلمات يستحيل تفنيدها، مقتبسًا من سـفر المزامير 14، 53 قائلاً: "كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: 'إِنَّهُ لَيْسَ بَـارٌّ وَلاَ وَاحِدٌ. لَيْسَ مَنْ يَفْهَمُ. لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ اللهَ. الْجَمِيـعُ زَاغُـوا وَفَسَدُوا مَعًا. لَيْسَ مَنْ يَعْمَـلُ صَـلاَحًا لَـيْسَ وَلاَ وَاحِـدٌ. حَنْجَرَتُهُمْ قَبْرٌ مَفْتُوحٌ. بِأَلْسِنَتِهِمْ قَدْ مَكَرُوا. سَـمُّ الأَصْـلاَلِ تَحْتَ شِفَاهِهِمْ. وَفَمُهُمْ مَمْلُوءٌ لَعْنَةً وَمَرَارَةً. أَرْجُلُهُمْ سَـرِيعَةٌ إِلَى سَفْكِ الدَّمِ. فِي طُرُقِهِمِ اغْتِصَابٌ وَسَحْقٌ. وَطَرِيقُ السَّلاَمِ لَمْ يَعْرِفُوهُ. لَيْسَ خَوْفُ اللهِ قُدَّامَ عُيُونِهِمْ'" (رو 3: 10-18).

وهكذا، نرى أن الفساد الذي حلّ بطبيعة الإنسـان هو فساد شامل، لكنه ليس فسادًا مركزيًّا. فالإنسان لا يخطئ بكلّ الطرق الممكنة، ولا يصل شرّه إلى أقصى درجاته المطلقة، بل إنه يمكنه القيام ببعض الأعمال الصالحة النسـبيّة، ولكنـه يخطئ في كلّ ما يصنع، وهو لا يقوم بأيّ فعل يمكن أن يرضى الله بحسب مقاييسه ــ تعالى.

الفساد الكليّ يعني عجزًا كليًّا

ثمة مصطلح آخر للتعبير عن الفساد الكلـيّ وهـو "العجز الكليّ." في الواقع، يفضّل الكثيرون هذا التعبير بـدلاً من التعبير الأول؛ حيث إن كثيرين يسيئون فهـم مصـطلح الفساد الكليّ. غير أن مصطلح الفساد الكليّ مصطلح سـلبيّ

جدًّا. فهو يقترح أن شرّ الإنسان هو مجرد نقص، وليس توجهًا في طبيعته. لكنه مصطلح مفيد جدًّا في توضيح فكـــرة عجـــز الإنسان عن فعل الخير، وفهمه وحتى الرغبة فيه. ولنتحـــدث الآن عن هذه الثلاثيّة.

لا يستطيع الإنسان عمل الصلاح

قال الرّبّ يسوع مرة "هَكَذَا كلّ شَجَرَة جَيِّدَة تَصْنَعُ أَثْمَارًا جَيِّدَةً وَأَمّا الشَّجَرَةُ الرَّديّة فَتَصْنَعُ أَثْمَارًا رَديَّةً. لاَ تَقْـــدرُ شَجَرَةٌ جَيِّدَةٌ أَنْ تَصنَعَ أَثْمَارًا رَديّة وَلاَ شَجَرَةٌ رَديّة أَنْ تَصْـــنَعَ أَثْمَارًا جَيِّدَةً" (مت 7: 17- 18). بكلمات أخرى، إن الإنسان الطبيعيّ لا يقدر أن يصنع ما هو بالفعل صـــالح. وفي نفـــس السياق، يكتب الرسول بولس "لذَلكَ أُعَرِّفُكُمْ أَنْ لَيسَ أَحَـــدٌ وَهُوَ يَتَكلمُ برُوحِ اللهِ يَقُولُ: 'يَسُوعُ أَنَاثيمَا' وَلَيْسَ أَحَدٌ يَقْدرُ أَنْ يَقُولَ: 'يَسُوعُ رَبّ' إِلاَّ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ" (1كـــو 12: 3). وفي مناسبة أخرى، حين تحدّث الرّبّ يسوع عن سرّ الحيـــاة المسيحيّة: الحياة الممتلئة بالمسيح (يو 15) اســـتخدم تشـــبيه الكرمة والأغصان. وفي مجال حديثه عن عجز الإنسان عـــن القيام بعمل الصلاح، قال، "اُثْبُتُوا فيَّ وَأَنَا فـــيكُمْ. كَمَـــا أَنَّ الْغُصْنَ لاَ يَقْدرُ أَنْ يَأْتيَ بثَمَرٍ منْ ذَاته إنْ لَمْ يَثْبُتْ في الْكَرْمَة كَذَلكَ أَنْتمْ أيضًا إنْ لَمْ تَثْبُتُوا فيَّ. أَنَا الْكَرْمَةُ وَأَنْتُمُ الأَغْصَانُ. الَّذي يَثْبُتُ فيَّ وَأَنَا فيه هَذَا يَأْتي بِثَمَرٍ كَثيرٍ لأَنَّكُمْ بِـــدُوني لاَ تَقْدرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئًا" (يو 15: 4-5). وفي تصريحات قوية،

ينكر الرسول بولس قدرة الإنسان على القيام بعمل الصلاح فيقول، "لأَنَّ اهْتِمَامَ الْجَسَدِ هُوَ عَدَاوَةٌ للهِ إِذْ لَيْسَ هُوَ خَاضِعًا لِنَامُوسِ اللهِ لأَنَّهُ أَيضًا لاَ يَسْتَطِيعُ. فَالَّذِينَ هُمْ فِي الْجَسَدِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُرْضُوا اللهَ" (رو 8: 7- 8).

فَكِّرْ مرة أخرى في الثلاثيّة التي ذكرها الرسول بولس: الإنسان الطبيعيّ في عداوة مع الله، الإنسان الطبيعيّ لا يطيع وصايا الله، ولا يقوم بفعل الصلاح، ولا يقدر أن يرضى الله!

لا يستطيع الإنسان أن يفهم الصلاح

إن الإنسان الطبيعيّ لا يستطيع أن يقوم بعمل ما هو صالح، ولا يقدر حتى أن يفهم طبيعة الصلاح الحقيقيّة. إنه أعمى لا يستطيع أن يرى الصلاح. لقد سمعت ليديّة، على سبيل المثال، الرسول بولس يعظ عن المسيح يسوع على ضفاف النهر في فيلبي، لكنها لم تقبل الإيمان إلا بعد أن فتح الرّبّ قلبها لتؤمن بما كان الرسول بولس يقول. "فَكَانَتْ تَسْمَعُ امْرَأَةٌ اسْمُهَا ليديّة بَيَّاعَةُ أُرْجُوان مِنْ مَدِينَة ثَيَاتِيرَا مُتَعَبِّدَةٌ لِلّهِ فَفَتَحَ الرّبّ قَلْبَهَا لِتُصْغِيَ إِلَى مَا كَانَ يَقُولُهُ بُولُسُ" (أع 16: 14). أمّا قبل ذلك، فقد كان ذهنها مظلمًا، على حد تعبير الرسول بولس نفسه (أف 4: 18).

لننظر الآن إلى تشبيه آخر استخدمه الرسول بولس. لقد ارتفع "الحجاب" من على قلب ليديّة، ذاك البرقع الذي

منعها من رؤيّة الحق (2كو 3: 12- 18). لكن حين عمل الله في قلبها، صارت قادرة على التجاوب مع ما قاله الرسول بولس أثناء خدمته بينهم.

لقد واجه المسيح رفضًا كثيرًا من اليهود "إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ" (يو 1: 11). لم تكن المشكلة في محتوى وعظ المسيح. لقد كان الحق واضحًا أمام عيونهم، وكان المسيح، الكلمة المتجسد، يسير بينهم. لقد أشرق النور ليضئ ظلامهم، لكن الظلمة لم تدركه.

لقد وعظ المسيح وأجرى العديد من المعجزات، لكنهم جدفوا عليه "لِمَاذَا لاَ تَفْهَمُونَ كَلاَمِي؟ لأَنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي" (يو 8: 43). بكلّ تأكيد كان المسيح يتحدث عن آذانهم الروحيّة، لا الجسديّة. وقال في متى (13: 14) "تَسْمَعُونَ سَمْعًا وَلاَ تَفْهَمُونَ وَمُبْصِرِينَ تُبْصِرُونَ وَلاَ تَنْظُرُونَ."- إن هذا هو ما يفسر حقيقة أن كثيرين من اللاهوتيّين وطلاب الكتاب المقدّس يصرفون معظم حياتهم في دراسة الكتاب المقدّس دون أن يكونوا قد قبلوا يسوع المسيح ربّا ومخلّصًا!

إننا لا نجد في كلمة الله تعليقًا واضحًا حول سبب هذا الرفض. لكن السبب الحقيقيّ يكمن في العمى الروحيّ، والظلمة، والقلوب الفاسقة.

يمثل الإصحاحان الأول والثاني من رسالة الرسول بولس لكنيسة كورنثوس الأولى نصًّا واضحًا عن عجز الإنسان الطبيعيّ عن فهم ما لله. يقول الرسول بولس إن رسالة الصليب، أو كلمة الصليب هي جهالة عند الهالكين (1كو 1: 18). ولم تساعدهم "حكمتهم" الذاتيّة على معرفة الله، بل أنكروه (ع 21). لو كان بإمكان حكمتهم الأرضيّة معرفة الله، لعرف الكثيرون الله. لكن الأمر ليس كذلك. إن السبب الذي يجعل كثيرين من الحكماء يرفضون الإيمان المسيحيّ هو أن عقولهم مظلمة، ما لم ينالوا التجديد. فكما يقول الرسول بولس "وَلَكِنَّ الإِنْسَانَ الطبيعيّ لاَ يَقْبَلُ مَا لِرُوحِ اللهِ لأَنَّهُ عِنْدَهُ جَهَالَةٌ وَلاَ يَقْدِرُ أَنْ يَعْرِفَهُ لأَنَّهُ إِنَّمَا يُحْكَمُ فِيهِ رُوحِيًّا" (1كو 2: 14). فلا يستطيع أيّ شخص أن يفهم أمور الله، بدون عمل الله فيه.

لا يسعى الإنسان الطبيعيّ وراء الصلاح

لا يستطيع الإنسان الطبيعيّ القيام بأيّ عمل فيه صلاح حقيقيّ فحسب، بل هو عاجز أيضًا عن فهم الصلاح نفسه. أمّا الأسوأ من ذلك، فهو أنه لا يسعى وراء الصلاح، ولا يرغب فيه. وهذا العجز هو جزء أساسيّ من الفساد الذي لحق بالإنسان بعد السقوط. لكن عمق الفساد الكليّ هذا يظهر في رفض الإنسان الطبيعيّ حتى السعي وراء أيّ هدف صالح. "هو لا يهتم بأن يعرف الصلاح." إن هذه العبارة غير

دقيقة، فالإنسان الطبيعيّ يهتم بالصلاح، ولكنه يكرهه، ويكره مصدره الأسمى: الله. إن هذا النقص في الإنسان الطبيعيّ هو خلاصة الفساد الذي حلّ بطبيعته بعد السقوط.

إن هذا العجز وعدم قدرة الإنسان الطبيعيّ على السعي وراء الصلاح الأسمى، الذي جاء ذكره وبطريقة قويّة في تصريحات السيد المسيح في (مت 7: 18؛ يو 3: 13؛ 8: 43؛ 15: 4- 5)، قال المسيح "لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُقْبِلَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ" (يو 6: 44). وبعد ذلك مباشرة، قال بنفس الفكرة، لكن بكلمات أخرى، "لِهَذَا قُلْتُ لَكُمْ إِنَّهُ لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يُعْطَ مِنْ أَبِي" (يو 6: 65).

هذا هو الفساد الذي حلّ بطبيعة الإنسان. وعليه، فالإنسان لا يستطيع قبول المسيح ربًّا! ولا يقدر أن يتخذ أيّة خطوة نحو المسيح، ما لم يجتذبه الآب أولاً. وهذا الفساد فساد "عالميّ." لقد حلّ بالجميع، ولذا يقول، "لا يقدر أحد." لاحظ أنه لم يقل "إن كثيرين لا يقدرون." بل قال "لا يقدر أحد." نعم، هذا هو الفساد الكليّ الذي حلّ بكلّ البشر.

إن الدليل القويّ على عدم سعي الإنسان الطبيعيّ نحو الخير والصلاح موجودٌ في تشبيهات كثيرة جاء ذكرها في كلمة الله عن عمل الروح القدس. نقرأ، مثلاً، أن الروح يعطي "قلبًا من لحم،" وإنه "يلد،" وإنه "يخلق،" وإنه "يقيم." إن هذه

التعبيرات تُظْهِرُ بشكل واضح جدًّا حقيقة عجز الإنسان وفساده الكليّ.

في العهد القديم، على سبيل المثال، نقرأ عن غير المؤمن على أنه صاحب قلب حجريّ (حز 11: 19). لا حياة في القلب الحجريّ، إنه قلب ميت؛ لا يفعل شيئًا. هذا هو الفساد الكليّ. لكن الله يقول إنه سيغير قلب شعبه، وسيضع—تعالى—روحًا جديدًا في داخلهم. ونتيجة لذلك سيخلق فيهم قلبًا من لحم، قلبًا حيًّا، وسيكون لهم المقدرة على تبعية الله.

لقد استخدم الرّبّ يسوع المسيح رمز الميلاد فقال، "الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللّهِ" (يو 3: 3). إن الجنين لا يرغب، ولا يقدر على أمر الولادة. ولا يساهم بأيّ شيء في عمليّة الولادة، فمنذ لحظة الحمل حتى لحظة الولادة هو سلبيّ، وليس بمقدوره التحكم في ولادته. وبالمثل، لا يقدر غير المؤمن على اتخاذ أيّة خطوة نحو ميلاده الروحيّ. يجب أن يتجدد بعمل الروح القدس.

يعلّم المذهب الأرمينيّ بشيء غير مقبول، من وجهة نظرنا، وهو أن الإنسان الطبيعيّ (الذي ليست له أيّة حياة روحيّة) يمكنه أن يولد من جديد، ويمكنه الإيمان بالمسيح

يسوع. ولكن كيف نتخيل هذا، إن "غير الكائن" لا حياة له، ولا رغبة له في التوجه نحو المسيح.

أمّا الرسول بولس فقد استخدم تشبيه الخليقة الجديدة، فقال، "إِذًا إِنْ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ. الأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ. هُوَذَا الْكُلُّ قَدْ صَارَ جَدِيدًا...لأَنَّهُ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ لَيْسَ الْخِتَانُ يَنْفَعُ شَيْئاً وَلاَ الْغُرْلَةُ، بَلِ الْخَلِيقَةُ الْجَدِيدَةُ" (2كو 5: 17؛ غل 6: 15). إن "غير الموجود" لا حياة له، ولا يقدر أن تكون له حياة من ذاته. وتستلزم فكرة الخلق أن نؤمن بأن "المخلوق" إنما هو سلبيّ، وما ينطبق على الحياة الإنسانيّة الجسدانيّة، ينطبق أيضًا على الحياة الروحيّة: فالبشر غير قادرين على أن يجعلوا من أنفسهم "خليقة جديدة في المسيح."

كذلك استخدم الرسول بولس تشبيه القيامة، فقال، "وَأَنْتُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا بِالذُّنُوبِ وَالخطايا" (أف 2: 1). ويقول في (ع 5) "وَنَحْنُ أَمْوَاتٌ بِالخطايا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ، بِالنِّعْمَةِ أَنْتُمْ مُخَلَّصُونَ" قارن (كو 2: 13). كثيرون من مفسري الكتاب المقدّس المشهود لهم بالدقة والأمانة يروْن أن هذه الكلمات تعني أن الإنسان مجرد "مجروح" أو "مريض" لكنه ليس "ميتًا." وهكذا يعتقدون أن الإنسان مازال قادرًا أن يسأل الله أن يخلّصه. ويقولون بأن للإنسان القدرة أن يؤمن أو أن يرفض؛ فهو ليس ميتًا تمامًا. ولو كان الأمر كذلك، فلا

يستطيع الإنسان أن يطلب من الله الخلاص. هو فقط "مريض." نعم، هو خاطئ، ومريض بالخطيّة، لكن مازال بإمكانه أن يطلب مساعدة الطبيب. غير أن الرأي المشيخيّ يتمسك بالتعليم الكتابيّ الواضح: الإنسان لا يقدر أن يخلّص نفسه، إنه ميت، ولا يقدر حتى أن يفتح فاه للصراخ أو طلب النجدة، ولا توجد لديه أيّة رغبة في طلب المساعدة! فهو ميت!

يظن الفكر الأرمينيّ أن الإنسان غير المتجدد يشبه شخصًا سقط من الطابق الثاني، فانكسرت ثلاثة من ضلوعه، ورجله، ولكنه مازال حيًّا. يقال عن هذا الشخص إنه مصاب، يحتاج لمساعدة طبيب. في الواقع، يمكن أن يطلب هذه المساعدة عن طريق شخص آخر، أو أن يزحف إلى أقرب تليفون ليطلب المساعدة؛ حيث إنه يسعى للتمتع بالصحة والعافية. أمّا الفكر المشيخيّ، فيقارن غير المتجدد بمن سقط من أعلى ناطحة سحاب عملاقة، وسقط أشلاءً على الطريق، ولم يتبق فيه شيء حيّ حتى يطلب المساعدة. هذا الشخص ميت، لا حياة فيه، ولا يمكن أن يسعى للتمتع بالصحة أو العافية.

وهناك مثال آخر. يقول الفكر الأرمينيّ إن غير المتجدد يشبه رجلاً يغرق تطفو رأسه فوق الماء، ويبدأ في الغرق؛ إذ تخور قواه. وإن لم يتدخل أحدهم لإنقاذه،

فسيموت جزئيًّا. ربما تمتلئ رئتاه بالماء، وربما يفقد الوعي للحظة أو لحظتين، لكن مازال يتمتع بقواه العقليّة؛ وبالتالي مازال بمقدوره أن يلوح لقوة الإنقاذ حتى تأتي، وتنتشله من الغرق. وإن استطاع أن يلفت انتباههم إليه، فلسوف يأتون، ويقدمون له كلّ العون.

أمّا الصورة التي يرسمها الكتاب المقدّس فهي مختلفة، الإنسان غارق في قاع المحيط على بعد آلاف الأقدام من سطح المياه، وثقل المياه عليه لا يُطاق! إن الإنسان غارق هناك منذ زمن بعيد، وقد تآكل قلبه وذهنه. بكلمات أخرى، الإنسان ميت، وليس بمقدوره، ولا بمقدور شخص آخر غير المسيح نفسه أن ينقذه. ولكي ينال خلاصًا من هذا الغرق، فلابد من حدوث معجزة. لابد من أن تعاد إليه الحياة مرة أخرى، ولابد أن يطفو فوق سطح الماء. ساعتها يمكن أن يطلب العون.

وهذا هو حال الخاطئ، هو ميت بالذنوب والخطايا (أف 2: 1، 5). هو لا يرغب في التمتع بصحة وعافية، وهو لا يعرف احتياجه للشفاء. هو ميت.

حين أقام المسيح لعازر من الموت، لم تكن للعازر أيّة حياة في ذاته حتى يسمع صوت المسيح، ويقوم ليخرج خارج القبر. لم تكن فيه أيّة حياة على الإطلاق. لقد أقام المسيح لعازر، وساعتها سمع لعازر صوت المسيح، وخرج خارجًا.

تكشف هذه التشبيهات الفارق الجوهريّ بين الفكر الأرمينيّ والفكر المشيخيّ (المُصْلَح). وهو نفس الأمر الذي أطلق عليه مارتن لوثر اسم "العامل الحاسم" الذي يتعلق عليه كلّ الإصلاح. يؤمن الأرمينيّون بأن المسيح مات من أجل خطايانا، وأن أحدًا لا يستطيع أن يدفع ثمن خطايا البشر. وهذا حسن، حتى الآن. لقد أوفى يسوع كلّ الدين، ونحن مدينون له بذلك.

لكن المشكلة الحقيقيّة هي أن الأرمينيّين يستطردون بالقول بأن الخاطئ يقدر بذاته، بمساعدة الروح القدس، أن يطلب من المسيح أن يخلصه. وساعتها سوف ينال الخلاص.

أمّا التعليم الكتابيّ، من وجهة نظرنا، فهو عكس ذلك. لقد وضع الأرمينيّون العربة قبل الحصان! إن الإنسان ميت في ذاته، ميت في ذنوبه وخطاياه، وهو ليس مريضًا أو مجروحًا فحسب. لا، إن غير المجدّد، والغير المخلّص هو ميت روحيًّا (أف 2). وهو لا يقدر أن يطلب مساعدة من أحد، إن لم يغيّر الله قلبه الحجريّ، ويعطيه قلبًا روحيًّا، ويعطيه حياة جديدة (أف 2: 5). عندئذٍ فقط يقدر أن يتحوّل الشخص للمسيح، ويعبّر عن ندمه عن خطاياه، ويطلب من المسيح أن يمنحه خلاصًا.

والسؤال الآن: هل الله هو مصدر الفداء فقط، أم أيضًا الفداء والإيمان؟ هل ينحصر دور الله في توفير الذبيحة

البديلة (ذبيحة المسيح)، ويتمثل دور الإنسان في الإيمان؟ أم أن الإيمان هو أيضًا عطيّة من الله (أف 2: 8)؟ هل يعتمد الخلاص بشكلٍ جزئيٍّ على الله (حيث بذل ابنه الوحيد على الصليب)؟ أم أنه يعتمد بشكل كليٍّ على الله (بَذَلَ المسيح على الصليب، ويعطي الإيمان كعطيّة إلهيّة)؟ هل يحتفظ الإنسان بقليل من المجد لنفسه نظير قدرته على الإيمان؟ أم أن المجد يعود كلّه لله؟ إن تعليم الفساد الكليّ الذي لحق بطبيعة الإنسان بعد السقوط يؤكد على أن كلّ المجد يرجع لله وحده.

خلاصة

ثمة دروس ثلاثة يمكن أن نتعلمها من عقيدة الفساد الكليّ الذي أصاب الإنسان بعد السقوط:

تفسر هذه العقيدة الخلل الحادث في العالم

إن كراهيّة الإنسان لله هي السبب الحقيقيّ المتأصل وراء العنف، وفي المظاهرات المدّمرة، والسرقة، والفوضى السياسيّة، والإضرابات الأنانيّة التي تسعى وراء مصلحة أفراد معينين، وجرائم المخدرات، إلى آخره من مظاهر العنف والشر المتفشي في كلّ أنحاء العالم.

وبدون أن نبسّط الأمور يمكننا القول إن مثل هذه الجرائم لن تختفي من المجتمعات بشكل أساسيّ، وكليّ، ما لم يؤمن الناس بالمسيح يسوع. فالكتاب المقدّس يؤكد على أن

الإنسان الطبيعيّ ليس كائنًا روحيًّا. "الْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعًا. لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحًا لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ. حَنْجَرَتُهُمْ قَبْرٌ مَفْتُوحٌ. بِأَلْسِنَتِهِمْ قَدْ مَكَرُوا. سِمُّ الأَصْلاَلِ تَحْتَ شِفَاهِهِمْ. وَفَمُهُمْ مَمْلُوءٌ لَعْنَةً وَمَرَارَةً. أَرْجُلُهُمْ سَرِيعَةٌ إِلَى سَفْكِ الدَّمِ. فِي طُرُقِهِمِ اغْتِصَابٌ وَسَحْقٌ. وَطَرِيقُ السَّلاَمِ لَمْ يَعْرِفُوهُ. لَيْسَ خَوْفُ اللهِ قُدَّامَ عُيُونِهِمْ" (رو 3: 12- 18).

لكن، لا يُفْهَمُ من ذلك أن تجدّد العالم كله سيحل "كلّ" المشاكل. مازال المؤمنون يصارعون ضدّ الخطيّة، مع أن طبيعتهم تغيّرت بشكل أساسيّ. إن حاجة العالم، بالتأكيد، هي لأكثر من ذلك؛ العالم يحتاج إلى مؤمنين يطبقون أساسيّات إيمانهم في كلّ مجالات الحياة: في السياسة، والعمل، والاقتصاد، وفي المجتمع بشكل عام. إن التعليم الخاص بفساد الإنسان بعد السقوط يبعد الحيرة من أذهان المؤمنين، حين يروْن مثل هذه الشرور حادثة من حولهم، ويذكرهم بأن حاجة العالم العظمى هي لإنجيل المسيح.

الاحتياج لله

يوضّح هذا التعليم عجزنا الكامل، وحالنا البائس ما لم يمد الله يد العون لنا. حين يقرأ المرء عن فداحة خطيئته، كما يعلّمنا الكتاب المقدّس، يلتفت إلى الله ويصرخ، "ارحمني، أنا الخاطئ. إنني أحتاج إليك يا يسوع." حينئذ ثمة شيء ثالث سيحدث.

مبادرة عمل الله

يؤكد هذا التعليم للإنسان أن صرخته لله من أجل الخلاص مرجعها الله نفسه، العامل فيه أن يريد وأن يفعل من أجل المسرة الصالحة (في 1: 6). سيعلم الإنسان ساعتها أن المسيح لم يمت من أجل خطاياه فحسب، بل إن الله—تعالى—وضع في قلبه إيمانًا بالمسيح. وآنذاك سيهتف الإنسان فرحًا وابتهاجًا، "كمْ أنت عظيم ياربّ! فلم يأت المسيح لكي يتحمل عقوبة خطيتي فحسب، بل وضع في قلبي رغبة لكي أحبه وأتبعه مع أني كنت ميتًا بالذنوب والخطايا. ياله من إله عظيم."

لستُ أنا من اخترتك، ياربّ...
لم يكن هذا ممكنًا إطلاقًا.
قلبي مازال مليئًا بالرفض،
أنت اخترتني أولاً...
أشكرك يا من أنقذت حياتي.

الفصل

الثالث

الاختيار

غير المشروط

الاختيار غير المشروط

يشعر الكثيرون بالضيق الشديد حين يسمعون كلمة "الاختيار" أو "التعيين السابق." ويتخيل هؤلاء أن "قدرًا أحمق الخطى" يمسك بالإنسان، ولا يقدر الإنسان أن يفلت منه. آخرون، حتى ممن يؤمنون بعقيدة الاختيار، يؤمنون أن تعليم الاختيار صالح فقط داخل المعاهد اللاهوتيّة، لكن لا مكان له في وعظ الكنيسة. ويفضّل هؤلاء أن يدرس المؤمنون هذا الموضوع في بيوتهم، سرًّا!

إن مثل هذا التوجه هو أمر غير كتابيّ؛ إذ يعتمد على ما لا يقول الكتاب المقدّس عن الاختيار. إن عقيدة الاختيار، كما يعلّمها الكتاب المقدّس، ليست قدرًا يمسك بالإنسان، بل هي أكثر تعاليم الكتاب المقدّس دفئًا، ومن شأنها إدخال السرور إلى قلب المؤمن. كما أنها تجعل المؤمن شخصًا يمجّد الله دومًا من أجل صلاحه، وخلاصه، ونعمته التي افتقدت خاطئًا لا صلاح فيه.

لننظر الآن إلى مجموعة حقائق يذكرها الكتاب المقدّس عن الاختيار:

- ما هو الاختيار؟
- ما هو الأساس الكتابيّ للاختيار؟
- بعض التوضيحات الخاصة بالاختيار
- ما هي الأبعاد العمليّة لهذا التعليم؟

ما هو الاختيار؟

لكي نشرح ماهيّة الاختيار، يجب أولاً أن نوضّح بعض المصطلحات:

القضاء السابق

إن القضاء السابق هو خطة الله السياديّة التي تشمل كلّ شيء، والتي بها يُقرِّرُ الله كلّ ما يحدث في الكون. لا يحدث شيء في هذا العالم بالمصادفة. إن الله يقف وراء كلّ الأحداث. إنه يُقرِّرُ ويُسبِّبُ كلّ شيء يحدث. إنه لا يقف مكتوف الأيدي مرتبكًا، غير عالم بما سيحدث غدًا. كلا، لقد قضى الله بكلّ شيء بحسب مسرة مشيئته (أف 1: 11). إنه يُقرِّرُ حركة الإصبع، وتدفق الحياة في القلب البشريّ، وضحكة الفتاة الصغيرة، وخطأ الآلة الكاتبة، حتى الخطيّة (انظر تك 45: 5- 8؛ أع 4: 27- 28).

التعيين السابق

أمّا التعيين السابق فهو جزء من قضاء الله. لكن بينما يشير مصطلح "القضاء السابق" إلى خطة الله لكلّ شيء يمكن أن يحدث. إن مصطلح الاختيار يكلّمنا عن المصير الأبديّ للإنسان: إمّا السماء، أو الجحيم. ويتكون التعيين السابق من: الاختيار، الرفض. يتعلق الاختيار بمصير الذاهبين للسماء، أمّا الرفض فيتعلق بمصير الهالكين.

الاختيار غير المشروط

ولكي نفهم هذا المصطلح علينا أن نلتفت لهاتين الكلمتين:

"الاختيار": كلّنا نعرف طبيعة الانتخابات الرئاسيّة العامة. يختار الناخبون مرشحًا واحدًا لشغل منصب الرئيس، ويغضون النظر عن الآخرين. لقد "اختار" الله البعض للحياة الأبديّة، ولكنه "ترك" الآخرين ليمضوا في طريقهم إلى الجحيم.

"غير المشروط": يعتمد الاختيار المشروط على بعض الأسباب أو الشروط في شخص المختار. فعلى سبيل المثال، كلّ الاختيارات السياسيّة (الانتخابات) تعتمد على شروط معينة. فالمرشح يقدم بعض الوعود الانتخابيّة ليقنع الناخب ببرنامجه السياسيّ، بينما يعد بعض النواب بأن يكونوا نوابًا صالحين، ممثلين لمطالب الناس بالحقّ. وبعض المرشحين

يستخدمون عناصر أخرى في برنامجهم الانتخابيّ، فيحاولون الحصول على أصوات من هو من نفس الخلفيّة الدينيّة أو العرقيّة. وهكذا، فالانتخابات (الاختيارات) الإنسانيّة هي كلها اختيارات مشروطة؛ فصوت الناخب يعتمد (يشترط) على مجموعة من الوعود الانتخابيّة.

أمّا الاختيار الإلهيّ، فهو غير مشروط على الإطلاق. وهذا الأمر مدعاة للدهشة. إن الله لا يبني اختياره على تفكير الإنسان، ولا على وعود الإنسان، ولا حتى على فعل الإنسان. إننا لا نعرف تمامًا أساس اختيار الله، لكننا متأكدون من أن الأساس ليس بموجود في الإنسان. فلم ير الله شيئًا صالحًا محدّدًا في الإنسان يمكن أن يكون سببًا في الاختيار.

أليس هذا أمرًا رائعًا حقًّا؟! افترض أن اختيار الله مبني على شيء نفكر فيه، أو نقوله، أو نعمله، إذًا، من منا سينال خلاصًا من خطاياه؟ من منا سينجو؟ من منا يقدر أن يقف في محضر الله، ويدّعي أنه فعل الصلاح الحقيقيّ؟ إننا كلنا أموات بالذنوب والخطايا (أف 2). ولا أحد يعمل صلاحًا (رو 3). لو كان اختيار الله معتمدًا على شيء صالح يوجد فينا، فلا يمكن لأحد أن يصير من المختارين. وبالتالي لن تكون السماء المصير الأبديّ لأيّ منا، بل كلّنا سنقضي الأبديّة في الجحيم. فليس فينا الصلاح الحقيقيّ. لذا، يجب أن نشكر الله على اختياره غير المشروط.

ولكني أعتقد أنه حتى ما نقف على تعريف واضح جدًّا لمعنى الاختيار غير المشروط، يجب أن نشير إلى الفكر الأرمينيّ. إنني شخصيًّا لا أفضّل هذا الأسلوب، حتى لا يعتقد آخرون أنني أهاجم الأرمينيّة كفلسفة. إنني مقتنع بأن الأرمينيّين مسيحيّون مؤمنون. إنهم يؤمنون بالثالوث المقدّس، وبألوهيّة المسيح، وبعمله الكفاريّ. وكذلك يؤمنون بأن الخلاص بالإيمان وحده وليس بالأعمال. ولذلك، فكلّ المؤمنين، سواء كانوا من خلفيّة مُصْلَحة أو أرمينيّة، هم أعضاء في جسد المسيح الواحد، تجمعهم شركة الإيمان.

ولكن، مع أن الأرمينيّين مسيحيّون حقيقيّون، إلا أنهم مخطئون، كلّ الخطأ، فيمَ يتعلق بالمبادئ الخمسة التي نتحدث عنها TULIP. والسبب الوحيد الذي يجعلني أذكر الفكر الأرمينيّ هو استبيان الصواب من الخطأ. فإن وضعت اللون الأبيض بجوار اللون الأسود، فسيظهر بياض الأبيض بشكل واضح جدًّا. وهكذا الأمر بين الفكر المُصْلَح والفكر الأرمينيّ. وبالتالي، أريد أن أؤكد مجدّدًا على السبب الذي من أجله أذكر الأرمينيّين مع أنني أكِنُّ لهم كلّ تقدير.

إنني أحاول أن أوضّح الفكر الكتابيّ المتعلق بالاختيار غير المشروط، تلك العقيدة التي تبعث الفرحة في قلوب المؤمنين—بعيدًا عن خطأ تعاليم الآخرين، وزعمهم بأن اختيار الله مشروط.

يؤمن الأرمينيّون بأن اختيار الله اختيـــار مشـــروط. ويعتقدون أن الله سبق وعرف أولئك الذين سيؤمنون بالمسيح. وبالتالي، وعلى أساس معرفة الله السابقة هذه، فقد قـــرّر الله اختيار البعض للخلاص. وكذلك يؤمنـــون بـــأن الإنســـان الطبيعيّ، غير المجدّد، يملك في ذاته بعض الصـــلاح أحيانًـــا، لدرجة أنه، إن نال مساعدة الروح القدس، فسيصبح قـــادرًا على قبول المسيح. الإنسان يختار الله؛ ثمّ يختار الله الإنســـان! وهكذا، فاختيار الله مبنيّ على اختيار الإنســـان. هـــذا هـــو الاختيار المشروط. أمّا المُصْلَحون، فكما نعـــرف، فيؤمنـــون بالاختيار غير المشروط.

ما هو الأساس الكتابيّ للاختيار؟

ترتبط العقيدة المُصْلَحة TULIP كلّها معًا بشـــكل وثيق. فالذي يؤمن بمبدأ واحد، ســـيؤمن بالأربعـــة المبـــادئ الأخرى. والإيمان بالفساد الكليّ الذي لحق بطبيعة الإنســـان يستوجب أن نؤمن باختيار إلهيّ غير مشروط. فبما أن البشريّة صارت فاسدة بشكل كامل بسبب السقوط، وبعض البشـــر نال الخلاص، بينما هلك، ويهلك البعض الآخر، فليس أمامنا إلا أن نُعْزِي هذا الأمر برمته إلى الله. لو تُرِكَ البشر لحالهم دون اختيار من الله، لهلك جميعهم؛ وذلك لأن طبيعـــة الإنســـان فسدت بعد السقوط. والبشر أمـــوات روحيًّـــا (أف 2). ولا يوجد في الإنسان أيّ صلاح، أو حياة. فليس الإنسان مريضًا،

بل هو ميت روحيًا. ولذا، فهو لا يقدر أن يصنع شيئًا واحدًا صالحًا. ولا يقدر أن يفهم أمور الله، ولا أن يسعى وراء الخلاص، أو الإيمان بالمسيح. فقط، حين يجدّد الروحُ القدس الإنسانَ، ويجعل منه كائنًا حيًّا روحيًّا، يستطيع الإنسان أن يضع ثقته في المسيح، ويؤمن به.

وبالتالي، فإن كان التعليم الخاص بفساد طبيعة الإنسان بعد السقوط تعليمًا كتابيًّا؛ يلزم، إذًا، أن ينبع الإيمان، وبعده الخلاص من عمل الروح القدس في قلب الإنسان. أمّا اختيار الشخص الذي سيعمل فيه الروح القدس فهو متروك، برمته، مائة بالمائة، لشخص الله؛ لأن الإنسان المائت روحيًّا عاجز عن طلب معونة الله. هذا، إذًا، هو الاختيار غير المشروط. هو اختيار يُرجع السبب لله وحده، وليس للإنسان المائت بالذنوب والخطايا.

فقرات كتابية

يوحنا 6: 37-39

قال الرّبّ يسوع المسيح: "كلّ مَا يُعْطِينِي الآبُ فَإِلَيَّ يُقْبِلُ وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا. لأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ لأَعْمَلَ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَهَذِهِ مَشِيئَةُ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كلَّ مَا أَعْطَانِي لاَ أُتْلِفُ مِنْهُ شَيْئًا بَلْ أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ." يوضّح هذا النصّ أنَ هؤلاء الذين سيقومون في اليوم الأخير (المؤمنون الحقيقيّون) هم عطيّة

الآب للابن، والذين يأتون للمسيح هم أولئك الـذين سبق وأعطاهم الآب للابن. إن الله هو من يعطي المؤمنين للمسيح حتى ينالوا الخلاص. وبمجرد أن يحدث ذلك، فلن يهلك من هؤلاء أحدٌ. إن المسيح يحفظهم. وهكذا نـرى أن الخلاص يعتمد أساسًا على عطيّة الآب للابن. وما هذا إلا اختيارٌ غير مشروط!

يوحنا 15: 16

قال المسيح "لَيْسَ أَنْتُمُ اخْتَرْتُمُونِي بَلْ أَنَا اخْتَرْتُكُمْ وَأَقَمْتُكُمْ لِتَذْهَبُوا وَتَأْتُوا بِثَمَرٍ وَيَدُومَ ثَمَرُكُمْ لِكَيْ يُعْطِيَكُمُ الآبُ كُلَّ مَا طَلَبْتُمْ بِاسْمِي." لا يوجد نصّ أوضح من هذا يتحدث عن الاختيار غير المشروط. يقول الأرمينيّون، "إننا نختار المسيح." أمّا المسيح فيقول، "لا، بل أنا اخترتكم." يقوم المؤمن بالفعل باختيار المسيح، فالإنسان يؤمن بالمسيح، أمّا المسيح فيرد قائلاً، "لا، أنا اخترتك." وهذه الإجابة القويّة من المسيح هي تأكيد آخر على أن المؤمن، مع أنه يظن أنه اختار المسيح، إلا أنه هو أصلاً مختارٌ من المسيح.

وكنتيجة لاختيار المسيح للمؤمن، يختار المؤمنُ المسيحَ. إننا نظن أننا نفعل كلّ الصلاح بما في ذلك الإيمان بالمسيح، لكن يجب أن نتذكر أن الله هو العامل فينا أن نريد وأن نعمل حسب مسرة مشيئته (في 2: 12، 13).

طلبت الرّبّ،
وبعدها عرفت أنه جعل روحي ترغب فيه.
لم أجدك أنا، أيها المخلص العظيم،
بل أنت يا سيدي من وجدتني.
إنني أجدك، إنني أحبك،
إنني أسير معك،
كلّ حبي لك، يا سيدي،
لأنك كنت معي منذ الأزل، أحببتني منذ الأزل.

إن هذه الكلمات كتابيّة، وهي تعبّر بالفعل عن كلمات المسيح لأتباعه "أنا اخترتكم." وتعبّر أيضًا عما كتبه الرسول يوحنا في افتتاحيّة رسالته "هو أحبنا أولاً." إن حب المسيح لنا يسبق حبنا نحن له. وهذا هو اختيار النعمة.

أعمال 13: 48

كتب البشير لوقا، "فَلَمَّا سَمِعَ الأُمَمُ ذَلِكَ كَانُوا يَفْرَحُونَ وَيُمَجِّدُونَ كلمَةَ الرّبّ، وَآمَنَ جَمِيعُ الَّذِينَ كَانُوا مُعَيَّنِينَ لِلْحَيَاةِ الأبديّة." هذا النصّ يحتوي على إشارة واضحة، وصريحة لكلّ من يقرأ الكتاب المقدّس، دون حكم مسبق، حول قضيّة الاختيار. كتب البشير لوقا عن وعظ بولس وبرنابا في أنطاكيّة وعن إيمان الكثيرين هناك. وعبّر عن نتيجة كرازتهما بهذه الكلمات.

يسبّب هذا الأمر إزعاجًا كبيرًا للأرمينيّين، حتى إن لاهوتيين أرمينيّين حاولوا قراءة النصّ بشكلٍ مغاير على النحو التالي: "وكلّ من آمن، تَعَيَّنَ للحياة الأبديّة." وهكذا فعل سوسينيوس (1539م- 1604م) مؤسس حركة Unitarianism. هذه المحاولات تشوّه نصّ كلمات البشير لوقا. لكنها تناسب بشكلٍ طيب اللاهوت الأرمينيّ، الذي يؤمن بأسبقيّة الإيمان على التعيين. أمّا الكتاب المقدّس فيقول عكس ذلك: "فَلَمَّا سَمِعَ الأُمَمُ ذَلِكَ كَانُوا يَفْرَحُونَ وَيُمَجِّدُونَ كلمَةَ الرّبِّ، وَآمَنَ جَمِيعُ الَّذِينَ كَانُوا مُعَيَّنِينَ لِلْحَيَاةِ الأبديّة" (أع 13: 48). إن بساطة لغة النصّ قويّة ومذهلة.

2 تسالونيكي 2: 13

كتب الرسول بولس، "وَأَمَّا نَحْنُ فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَشْكُرَ اللهَ كلّ حِينٍ لأَجْلِكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الْمَحْبُوبُونَ مِنَ الرّبّ، أَنَّ اللهَ اخْتَارَكُمْ مِنَ الْبَدْءِ لِلْخَلاَصِ، بِتَقْدِيسِ الرُّوحِ وَتَصْدِيقِ الْحَقِّ." لاحظ أن النصّ يقول بأنَ اللهَ سبق، وأحبّ أهل تسالونيكي. هذه هي المحبة التي تختار. ولا نجد هذا التعبير مستخدمًا في الحديث عن غير المؤمنين، أو العالم، في أيّ موقع آخر في الكتاب المقدّس. لم نقرأ أبدًا عن يهوذا الإسخريوطيّ أنه كان محبوبًا بنفس القدر من الله. هذا تعبير حصريّ يخصّ المؤمنين فقط، الذين نالوا الخلاص بفضل موته. وهذه إشارة أخرى لمحبة الله الأبديّة التي تختار.

لاحظ، أيضًا، أن كلمات الرسول بولس الخاصة باختيار أهل تسالونيكي تعني ضمنًا أن الله ترك آخرين يهلكون. والأكثر من ذلك، يقول الرسول بولس إن الله اختارهم منذ البدء، قبل تأسيس العالم (أف 1: 4). ويمكن أن يقول أحدهم، "نعم، الله اختار المؤمنين قبل تأسيس العالم، لقد سبق وعيّن من سيقضي الأبديّة في السماء، ومن سيقضيها في الجحيم. ولكن الله أسّس اختياره هذا على سابق معرفته بإيمانهم بالمسيح، فقد عرف—تعالى—من سيقبل المسيح ومن سيرفض."

إن هذا الفكر يتجاهل تمامًا صراحة النصّ. فلم يقل الرسول بولس إن الله اختار التسالونيكيّين لأنهم تقدّسوا، أو لأنهم آمنوا. بل هو يقول عكس ذلك تمامًا. لقد اختارهم الله "للخلاص." وتقول الترجمة الإنجليزيّة الحديثة (NEB) "لقد اختاركم الله لتجدوا الخلاص." وتقول ترجمة أخرى (JB) "اختاركم الله منذ البدء لتخلصوا."

يأتي الخلاص أولاً عن طريق الإيمان. وهذا يعني أنه حين قال الرسول بولس إن الله اختار أهل تسالونيكي للخلاص فهو—تعالى—وهبهم وسيلة الخلاص: الإيمان. لو اختار الله أن يعطي شخصًا النتيجة النهائيّة (الخلاص) دون أن يهبه الوسيلة (الإيمان) التي تمكنه من الحصول على النتيجة، لأصبح هذا الاختيار بلا معنى!

وحتى لا يتشكك المتشككون في أن الله وهب الإيمان تمامًا كما وهب الخلاص (أف 2: 8)، لنتذكر كلمات الرسول بولس "بِتَقْدِيسِ الرُّوحِ وَتَصْدِيقِ الْحَقِّ." إن الخلاص، والتقديس، والإيمان هبة واحدة من الله للمؤمنين. وهكذا يعلّم هذا النصّ عن اختيار الله غير المشروط بأيّ شيء في الإنسان، لا تقدّسه، ولا حتى إيمانه. كلا، فاختيار الله غير مشروط.

أفسس 1: 4- 5

يقول الرسول بولس، "كَمَا اخْتَارَنَا فِيهِ قَبْلَ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، لِنَكُونَ قِدِّيسِينَ وَبِلاَ لَوْمٍ قُدَّامَهُ فِي الْمَحَبَّةِ، إِذْ سَبَقَ فَعَيَّنَنَا لِلتَّبَنِّي بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ لِنَفْسِهِ، حَسَبَ مَسَرَّةِ مَشِيئَتِهِ." لاحظ اللغة القويّة التي يستخدمها الرسول بولس في الحديث عن الاختيار. يقول "الله اختارنا." ولم يقل إننا نحن الذين "اخترنا الله." ثمّ يستطرد، ويقول إن الله "سبق وعيّننا." ثمّ يؤكد الرسول بولس على سيادة الله في الاختيار، ويقول إن الاختيار هو اختيار "في المسيح" أيّ أن الله لم يخترنا لأنفسنا، بل من أجل يسوع المسيح.

ربما يحاول البعض من المؤمنين بالفكر الأرمينيّ أن يقول إن الله سبق وعيّن البعض لكنه جعل هذا التعين مبنيًّا على سابق معرفته بمن سيؤمن منهم. وبالتالي، فقرار الاختيار يعتمد في المقام الأول على الإنسان، وليس على الله. لكن، لاحظ هنا أن الرسول بولس لا يقول إن الله اختارنا لأننا

قديسون، بل حتى نصير قديسين، وبلا لوم. لاحظ، أيضًا، أن القداسة تشمل الإيمان؛ حيث لا يمكن أن توجد قداسة بـــلا إيمان. إن نصّ أفسس هو عكس ما يعلّم به الأرمينيّون تمامًـــا، وهو نصّ يؤكد على أنـــه لا دور لإيماننـــا، أو لأعمالنـــا في الخلاص—الهبة المجانيّة من الله.

وقد أكد الرسول بولس هذا الأمر مرة أخرى، حين أضاف عبارة "حسب مسرة مشيئته." إن الله لم يختر الإنسان لأنه رأى فيه شيئًا يستحق الاختيار، كالإيمان مـــثلاً، لأنـــه، ساعتها، كان يجب أن يقول الرسول بولس "حســـب إيمـــان الإنسان الذي رآه الله سابقًا." بل بالأحرى، لا يذكر الرسول بولس أيّ شيء عن دور إنسانيّ، ويؤكد أن السبب النـــهائيّ يوجد في "مسرة الله ومشيئته" فقط. ثمّ، ليؤكد نفس الفكـــرة مرة أخرى، يذكر عبارة "مشيئته أو إرادته." لم يكن هناك ثمة احتياج لذكر هذه العبارة؛ فقد ذكر ذلك قبلاً، وأكد على أن الاختيار مبني على مسرة مشيئة الله، ولكنه يقـــول "إرادتـــه" ليزيد التأكيد تأكيدًا، ويسلط الضوء على حريّة وسيادة الله في الاختيار.

روميّة 8: 29، 30

"وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ كلّ الأَشْيَاء تَعْمَلُ مَعاً للْخَيْرِ للَّـــذِينَ يُحِبُّونَ الله الَّذينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْده. لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِه لِيَكُونَ هُـــوَ

بِكْرًا بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ." يظن كثيرون أن هذه الكلمات هي تعليم يدّعم الفكر الأرمينيّ القائل بمعرفة الله السابقة. إن هذا التفسير خاطئ جدًّا، وهو مبنيّ على قراءة سطحيّة للآيات. ومرجع ذلك الحكم هو أن التعبير "سبق وعرف" يأتي في أصله اليونانيّ/العبريّ ليعني "سبق وأحب." حين يقول الكتاب المقدّس، مثلاً، إن آدم عرف حواء، لا يقصد أن آدم تعرف على سمات شخصيتها، بل يقصد إنه أحبها.

وحين يقول داود في سفر المزامير إن الله "يعرف" طريق الأبرار (1: 6)، فإنه لا يقصد أن الله يعرف "يعلم" طريق الأبرار، ولكنه لا يعرف "يجهل" طريق الأبرار. فالله يعرف كلّ شيء، وكلّ إنسان، ويعرف الأشرار أيضًا. لكن داود يقصد أن طرق الأبرار "محبوبة" عند الله، وأنه —تعالى— "يبغض" الطرق التي يسلكها الأشرار، وأن طرقهم غير المستقيمة سوف تهلك.

على نفس المنوال، نقرأ في عاموس (3: 2) "إِيَّاكُمْ فَقَطْ عَرَفْتُ مِنْ جَمِيعِ قَبَائِلِ الأَرْضِ لِذلِكَ أُعَاقِبُكُمْ عَلَى جَمِيعِ ذُنُوبِكُمْ." مرة ثانية، لا يتحدث النصّ عن قصور ما في معرفة الله؛ فالله لا ينكر معرفته بكلّ شعوب العالم الأخرى، وكأنه يقول إنه لا يعرف سوى هذا الشعب. ولكن اللغة هنا تحمل بين طيّاتها كناية، وتصويرًا مفاده أن الله أحبهم دون غيرهم.

وبنفس الطريقة، فحين يقول الرسـول بـولس "لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِـهِ لِيَكُونَ هُوَ بِكْرًا بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ." (رو 8: 29) فإنه يستخدم الاستعارة المستخدمة في أماكن أخرى في الكتاب المقدّس ليعني أن هؤلاء الذين سبق الله وأحبهم، هم الذين سـبق وعيّنـهم للخلاص أيضًا. إن كان مصطلح "سبق وعرف" يعني سـبق المعرفة فحسب، فيلزم أن نقول بأن الله لا يعرف كلّ شـيء؛ لأنه لم يعرف من لم يعيّن للخلاص (غير المختارين)!

إن ما يحاول الرسول بولس قوله لكنيسة روميّة هو أن الخلاص بمثابة سلسلة ذهبيّة تبدأ بمحبة الله الأزليّة التي تختـار، وتستمر بشكل وثيق لتشمل: التعيين السابق، والدعوة الفعّالة، والتبرير، والتمجيد الأسمى في السماء. وهكذا يظهر جليًّـا أن هذا النصّ لا يدّعم بأيّ حال من الأحوال التفسير الأرمـينيّ الخاص "بسبق المعرفة" كأساس للاختيار. بل يؤكّد—مثله في ذلك مثل باقي النصّوص الكتابيّة الأخرى—على أن أسـاس الاختيار هو محبة الله الأزليّة. شكرًا لله من أجل هذه الحلقات المترابطة سويًّا. إن المؤمنين جميعًا مدعوون للتمتع بهذه المراحل العظيمة في أمر الخلاص.

روميّة 9: 6- 26

تعد كلّ النصّوص سابقة الذكر دعمًا ممتازًا يؤكـد حقيقة أن الله لم يختر بناءً على شيء ما في الإنسان. أمّا أروع النصّوص على الإطلاق فهو روميّة 9: 6- 26.

إن المشكلة الأساسيّة التي يعالجها هذا النصّ هي كيف يكون الإسرائيليّون (شعب الله في القديم)، الذين كانت لهم المواعيد والبركات في الماضي، أمواتًا روحيًّا؟ هل نسي الله وعوده؟ ويقول الرسول بولس، "وَلَكِنْ لَيْسَ هَكَذَا حَتَّى إِنَّ كَلِمَةَ اللهِ قَدْ سَقَطَتْ. لأَنْ لَيْسَ جَمِيعُ الَّذِينَ مِنْ إِسْرَائِيلَ هُمْ إِسْرَائِيلِيُّونَ"(ع 6). ويستطرد في الحديث مؤكدًا على أن المرء لا يحصل على الخلاص لكونه عضوًا في جماعة عرقيّة ما، فالخلاص منحة إلهيّة. وهذا هو ما أريد التركيز عليه أيضًا.

إن التلميح الأول موجود في الآية 7، حين يتحدث الرسول بولس عن السبب الإلهيّ الذي لأجله اختار الله إسحاق دون إسماعيل. لقد تحدث الله بلغة قويّة، وأكّد على اختيار نعمته قائلاً: "وَلاَ لأَنَّهُمْ مِنْ نَسْلِ إِبْرَاهِيمَ هُمْ جَمِيعاً أَوْلاَدٌ. بَلْ بِإِسْحَاقَ يُدْعَى لَكَ نَسْلٌ" (ع 7). ثمّ يؤكّد الرسول بولس نفس الحقيقة في حديثه عن يعقوب وعيسو. يعقوب وعيسو أخوان، من نفس الأب والأم، كما أنهما توأمان. لكن الله، في سيادته، اختار الأول دون الثاني.

وليؤكّد الرسول بولس على أن اختيار الله لم يعتمد على سبق معرفته، قال إن الله أخبر أمّهما بقرار نعمته حتى قبل أن يُوْلَدَ التوأم، وقبل أن يفعلا خيرًا أو شرًّا (9: 11). يقول الرسول بولس إن هذا حدث حتى "يَثْبُتَ قَصْدُ اللهِ حَسَبَ الاخْتِيَارِ لَيْسَ مِنَ الأَعْمَالِ بَلْ مِنَ الَّذِي يَدْعُو" (ع 11). لم

يختر الله يعقوب لأنه رأى فيه صلاحًا أو إيمانًا. فمصدر الاختيار لا يوجد في يعقوب. "كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَحْبَبْتُ يَعْقُوبَ وَأَبْغَضْتُ عِيسُوَ" (ع 13).

ولكن من منظورنا البشريّ، نسأل الله، "ولكن، لماذا ياربّ؟" والله نفسه يرد قائلاً، "أحببتُ يعقوب. وأبغضتُ عيسو" دون إبداء سبب يشبع مثل هذا الشغف الإنسانيّ. ويشعر الرسول بولس أيضًا بأن هذه الكلمات سوف تثير في ذهن مؤمني كنيسة روميّة بعض الاعتراضات. وكأن البعض يقول "أيّ إله هذا؟ إنه ليس إلهًا عادلاً. هل من المعقول أن يختار واحدًا، دون الآخر—حتى قبل أن يولدا ولا فعلا شرًّا ولا خيرًا؟ لم تكن لهما فرصة لتحسين شخصيتهما." ولذا يسأل الرسول بولس في الآية 14 "ألعلّ عند الله ظلمًا؟" هذا هو لبّ المشكلة. يبدو للكثيرين أن الاختيار غير المشروط يجعل من الله إلهًا ظالمًا، الأمر الذي يجعل الكثيرين يرفضون مثل هذا التعليم!

ولكن، قبل أن أتحدث عن ردّ فعل الرسول بولس لهذه المشكلة الافتراضيّة، لننتبه لأمر هام، ألا وهو أن هذا السؤال بعينه يفترض الاختيار غير المشروط. إن السؤال المثار حول قضيّة عدالة الله لا يُثار في الأوساط اللاهوتيّة الأرمينيّة. فالله، بحسب الفكر الأرمينيّ، ليس إلهًا سياديًّا في اختياره؛ لأنه يعرف من سيكون صالحًا ومن سيصبح طالحًا، ومن سيقبل

الإيمان. فاختيار الله، كما يؤمنون، يعتمد على شيء يملكه الإنسان أو شيء ينجزه. وبالتالي، فاختياره اختيار عادل؛ حيث إنه يضع في الاعتبار استحقاقات الإنسان.

أمّا تعليم الاختيار غير المشروط فهو ما يثير عند البعض قضيّة عدالة الله؛ فإن اختيار الله ليعقوب، وتركه عيسو يبدو متنافيًّا مع العدل، والإنصاف، والمساواة، وهذه صفات أساسيّة في الله. وتزداد الطينة بَلّةً، حين نعرف أن يعقوب ليس أفضل حالاً من عيسو. لذا، يظن الناس أن هذا النوع من الاختيار هو اختيار غير عادل، وبالتالي لابد أن يكون الله ظالمًا. ومن ثمّ، فإن بمجرد ذكر الرسول بولس لقضيّة عدالة الله أمر يؤكد على الاختيار غير المشروط. أمّا بخصوص التعليم الأرمينيّ عن الاختيار المشروط، فلا مكان للسؤال عن عدل الله فيه. لكن الرسول بولس يثير هذا التساؤل، الأمر الذي يؤكد أنه كان يتحدث عن اختيار غير مشروط.

للإجابة على هذا السؤال، لا يجب أن نقلّل من سيادة الله في الاختيار، ولا أن نحاول تقديم تبريرات منطقيّة لتشبع تساؤلات أولئك المتشككين. لكن الرسول بولس يصرّح، وببساطة، "حاشا لله!" لا تقل إطلاقًا "إن عند الله ظلمًا، هو ليس إلهًا ظالمًا البتة. هو إله صالح وقدوس، وليس فيه ظلم على الإطلاق."

إننا لا نفهم كلّ شيء الآن. فنحن، في النهاية، محدودون؛ لسنا آلهة. فهل من العجب أننا، كبشر خطاة

ضعفاء، لا نفهم كلّ ما لله؟ أليست طرقه مختلفة عن طرقنا، وأفكاره عن أفكارنا؟!

ويستكمل الرسول بولس حديثه عن الاختيار غير المشروط مقتبسًا نصًّا آخر من العهد القديم "لأَنَّهُ يَقُولُ لِمُوسَى: 'إِنِّي أَرْحَمُ مَنْ أَرْحَمُ وَأَتَرَاءَفُ عَلَى مَنْ أَتَرَاءَفُ'" (رو 9: 15) ثمّ يقول "فَإِذاً هُوَ يَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَيُقَسِّي مَنْ يَشَاءُ"(رو 9: 18). يعلّمنا الكتاب المقدّس أن سبب الاختيار يكمن في الله وحده. هو حرّ في اختياره لمن سبق، وأحب، وحرّ في أن يغض النظر عن البعض، وهذا ليس بسبب أن هذا أو ذاك صالح، لكنه بحسب مسرة مشيئته!

إنه من الممكن جدًّا أن نبني أطروحتنا هذه على الأفكار سالفة الذكر، والتي وردت في روميّة 9. لقد أكّد الرسول بولس أن الخلاص لا يعتمد على من يرغب أو يعمل، بل على ذاك الذي يدعو، وعلى أن الاختيار غير مشروط. ولا أرى حاجة لتكرار الفكرة مرة أخرى. ولكن قراءة الآية 16 تلّمح إلى أن الرسول بولس كان يضع اعتراض الأرمينيّين أمام عينيه، فهو يؤكّد بطريقة واضحة أن أمر الخلاص "لَيْسَ لِمَنْ يَشَاءُ وَلاَ لِمَنْ يَسْعَى بَلْ لِلّٰهِ الَّذِي يَرْحَمُ" (ع 16). هل يحتاج الأمر لتوضيح أكثر من ذلك؟! لا يعتمد الخلاص على الإنسان الذي يسعى، ولا الذي يريد، بل على الله الذي يرحم. هل يوجد من يشك في كلّ هذه التأكيدات على أن اختيار الله

غير مشروط! الأمر لا يتوقف على من يسعى، أو على من يريد، أو على من يُحَسّنُ من نفسه؛ الأمر — كلّ الأمر — يعتمد على الله، ولقد رأينا ذلك واضحًا جدًّا في (رو 9: 16).

بعض التوضيحات الخاصة بالاختيار

مشاكل في الفكر الأرمينيّ

إن إحدى الأسباب التي تجعل الفكر الأرمينيّ يعطي الأسبقيّة لدور الإنسان في عمليّة الخلاص هو اهتمامه بالتركيز على حرّيّة الإنسان. فالأرمينيّون يؤمنون بأنه إن كان الله قد سبق وعيّن كلّ شيء، فالإنسان فاقد للحريّة؛ وبالتالي فهو غير مسئول. ولذا، فهم يقلّلون من دور تعيين الله السابق لكلّ شيء؛ حتى يتركون مساحة لحرّيّة الإنسان، وتصرفه بعيدًا عن مخطّط الله للأمور. ولكننا يجب أن نلاحظ أن الفكر الأرمينيّ لا يعطي الحرّيّة للإنسان؛ وذلك لأنه بحسب هذا الفكر، نفسه، فقد سبق الله، وعرف كلّ شيء. لم يختر الله من سيؤمن بالمسيح، لكنه عرف، ومنذ البداية، قرار كلّ إنسان؛ لأنه كليّ العلم. وبالتالي، فإن كان الله يعرف كلّ الأحداث، فيلزم أن كلّ الأحداث التي سبق، وعرفها هي فقط التي ستحدث، ولا بديل لذلك. لو أن الله سبق، وعرف أن فلانًا سيؤمن يومًا ما، فلا يمكن أن هذا الشخص لا يؤمن. وبالتالي، فكلّ الأشياء ستحدث بالتأكيد، ولا احتمال أن يحدث عكسها.

حسنًا، هذا هو نفس الفكر المُصْلَح. إن الله سبق، وعرف كلّ شيء، وأحداث المستقبل أكيدة، وعلى الإنسان أن يفعل ما هو صالح. إن الفارق الوحيد هو أن الفكر المُصْلَح يؤكد، وبقوة، على أن الله كليّ القدرة، وأنه سيّد الأرض كلّها، والمتحكم في كلّ الكون. بينما يقول الفكر الأرمينيّ بأن الإنسان هو من يتحكم بمصير الأمور. إن الله، بحسب الفكر المُصْلَح، هو إله بكلّ معنى الكلمة، إله كليّ القدرة والسلطان. أمّا الفكر الأرمينيّ فلم يُصِبْ في حلّ معضلة حرّيّة الإنسان، وعلاقتها بالتعيين السابق. وهذه المعضلة هي أيضًا إحدى القضايا التي يواجهها الفكر المُصْلَح.

الإنسان حرّ

على عكس ما يظنه الكثيرون عن الفكر المُصْلَح، فالفكر المُصْلَح ينبّر ويؤكّد بوضوح على حرّيّة الإنسان. وحرّيته هذه كاملة، يفعل من خلالها ما يريد. فالله لا يجبر أحدًا، ضدّ إرادته. ولكن، لأن الإنسان حرّ، فهو عبد. ولأنه حرّ أن يعمل ما يريد، فلا إرادة حرّة عنده. الإرادة الحرة مفهوم مختلف عن تعبير "الإنسان حرّ." إن الإنسان غير قادر على القيام باختيارات عاقلة بين الشرّ والخير. مثله في ذلك مثل مدمن الكحول، الأخير ليس حرًّا. يبدو للناس أنه يملك القدرة على "الشرب" أو "عدم الشرب." لكن الحقيقة المرّة هي أنه يقدر على القيام بشيء واحد فقط: الشرب. فهو

مدمن. ولا يستطيع أن يقلع عن هذا التعاطي، تمامًا كما أنه لا يستطيع أن يتوقف عن التنفس. يلزم عليه أن يشرب، لأنه مدمن، وهو عبد للخمور، ومع ذلك فهو كائن حرّ، يفعل ما يريد، ولا يوجد من يرغمه على تعاطي الخمور.

وعلى نفس المنوال، فالخاطئ حرّ، وهو يفعل ما يتماشى مع طبيعته، إذ يتبع رغبات قلبه. إن مثل هذا الإنسان "فاسد" بالخطيّة، وملئ بالخداع. ويفعل الإنسان الطبيعيّ ما في قلبه من ميل طبيعيّ نحو الخطيّة. ولا يحب الإنسانُ الطبيعيّ الله. وبالتالي، يستحيل عليه قبول الله، ولا يمكن له أن يختار الله؛ لأنه لا يريد ذلك. الإنسان الطبيعيّ حرّ، وبالتالي فهو عبد. هو عبد للخطيّة، ولشهواته الشخصيّة، ولا يمكن أن يخدم الله.

أمّا من الناحيّة التاريخيّة، فإننا نلاحظ أن تعبير "الإنسان كائن حرّ" إنما هو مصطلح كان قد استخدم في الأوساط اللاهوتيّة للتعبير عن قدرة الإنسان على القيام بما يرغب. وكان هذا التعبير يشير لنوع الحرّيّة التي لا يملكها الإنسان، أي تلك الحرّيّة التي بها يختار بين الشرّ والخير، بين الإيمان بالمسيح وبين رفضه. فالمؤمنون ليسوا أحرارًا بشكل مطلق. بالطبع، بحسب الظاهر، يتمتع المؤمنون بحرّيّة قبول المسيح، أو رفضه. لكنهم، في الواقع، لا يقدرون على رفض المسيح، ولن يسمح لهم المسيح برفضه. فكلّ من أعطاه الآب

للابن، فإلى الابن يُقبل، وهؤلاء لن يخرجوا خارجًا، ولا يقدر أحد أن يخطفهم من يده (يو 6: 37، 39).

بكلمات أخرى، أقول، إن المؤمن ليست له حرّيّة مطلقة. إن كنت مؤمنًا بيسوع المسيح، اشكر الله لأنك لا تملك تلك الحرّيّة التي تمكنّك من رفض المسيح. الفكر المُصْلَح كما هو واضح ليس فكرًا قاسيًا متعسفًا. إنه تعليم يُدخل الفرحة والبهجة إلى القلب.

الكلّ يختار

أيضًا، يظن كثيرون أن عقيدة الاختيار هي عقيدة قاسية لأنها تجعل الإنسان يفعل ما لا يريد. ويقول هؤلاء إنه ليس بإمكانهم أن يؤمنوا ما لم يكن الله قد عيّنهم للخلاص، وأنه إن لم يؤمنوا، فلن يجبرهم الله على دخول السماء. إذًا، ما هي فائدة الإيمان؟

إنني أؤكد، وبشكل واضح، على أن الكلّ يختار. إن أولئك الهالكين في الجحيم، سعداء بأنهم هناك. فلن يذهب أيّ شخص إلى الجحيم رغمًا عن أنفه. كلّ من هو هناك، سعيد بأنه هناك. وأرجو ألا يسئ أحد فهمي. إن كلّ من هم في الجحيم عرفوا قبلاً أن الإنسان بعد الموت سيواجه إمّا الموت الأبديّ في الجحيم، أو النعيم الأبديّ في السماء. إنهم لا يحبون الجحيم، بالطبع، وإلا ما كانت لتصبح جحيمًا. إنه مكان

عذاب أليم، أبديّ. وبالتالي، فأولئك ليسوا سعداء لكونهم في الجحيم. لكن، ما يكرهونه، أكثر من كراهيتهم للجحيم، هو شخص الله—تعالى. إنهم يكرهون الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس. والمكان الأخير الذي يرغبون في التواجد فيه هو السماء. هم لا يقدرون أن يستوعبوا فكرة محبة الله من كلّ القلب، والتوبة، ومحبة الآخرين كالنفس. إنهم لا يحبون العذاب في الجحيم، ولكن حين يعرفون أن السماء، المكان البديل، تتطلب منهم قلبًا طاهرًا، فإنهم يفضلون الاستمرار في الجحيم. وهكذا نرى أن الكلّ يختار ما يريد. يسعد المؤمنون بأنهم محبوبون من الله، ويسعد الهالكون بأنهم بعيدون عنه!

في الغالب، يُكّن غير المؤمنين رفضًا ضمنيًّا للمسيح حين يعترضون على عقيدة الاختيار. ويشمل اعتراضهم هذا تبريرًا غير واقعي لرفض المسيح. إنني أسألهم "ماذا تريدون؟" هل تشعرون بالأسف على ما ارتكبتموه من خطايا؟ هل تضعون ثقتكم فيمَ صنع المسيح من أجلكم؟ هل تحبون الله؟ هل ترغبون في قضاء الأبديّة معه؟ إن قالوا، "نعم،" أقول لهم، "اعلموا إذًا أنكم بالفعل مؤمنون." المسيح لن يخرجكم خارجًا. أنتم اخترتم الإيمان. وإن قالوا، "لا،" فإنني أسألهم "لماذا إذًا تتذمرون؟ أنتم اخترتم عدم الإيمان. أنتم لا تريدون التوبة، أنتم لا تريدون المسيح، أنتم لا تريدون السماء. لكم، إذًا، ما اخترتم!"

ما هي الأبعاد العمليّة لهذا التعليم؟

إن هذا التعليم ليس سهلاً. وإن كان أحد مازال يتشكك في هذا التعليم، فإنني أقول له إن الخلاص لا يعتمد على الإيمان بالاختيار غير المشروط من عدمه. يمكن أن تعترينا بعض الشكوك حول تعاليم معينة في الكتاب المقدّس، ولكننا مازلنا نتمتع بالخلاص الإلهيّ. فالخلاص لا يعتمد على معرفتنا اللاهوتيّة التي تضاهي معرفة اللاهوتيّين المتخصصين. لكنه يعتمد أساسًا على موقفنا من الرّبّ يسوع المسيح: هل هو مخلصنا، أم لا؟ ومن ثمّ، فالأرمينيّون والمُصْلَحون ممن يتوبون من خطاياهم، ويضعون ثقتهم في المسيح سيقضون الأبديّة في السماء.

لكن، أعتقد أنه على كلّ شخص يؤمن بالفكر الأرمينيّ أن يقف على معرفة قول الكتاب بخصوص الاختيار. وإنني أعتقد أنهم، برفضهم عقيدة التعيين السابق، محرومون من التمتع بأمور كثيرة. المجد، كلّ المجد، لله

إن كنت تؤمن بالمسيح يسوع وبموته البديليّ من أجل خطاياك، وأنك بمساعدة الروح القدس أدركت يقين خلاصك، إذًا، يجب أن تكون شكورًا وتمجّد الله. لكن، افترض أنك بالإضافة لكونك شكورًا لما عمله المسيح من أجلك، أدركت أنه كان مستحيلاً أن تحب أنت المسيح، ما لم يحبك هو أولاً، وأنه كان مستحيلاً أن تختاره أنت ما لم يخترك

هو أولاً، ويجدّدك بالروح القـــدس، ويمنحـــك الإيمـــان. إن أدركت ذلك، ستحب المسيح أكثر من كلّ الماضي، وستزداد تواضعًا تحت يد الله؛ إذ تدرك أنه لم يكن فيـــك أيّ صـــلاح حقيقيّ. وسيزيد شكرك للرّبّ على قدر زيادة نعمته المتفاضلة في حياتك. إن الله عظيم جدًّا. لقد سامحنا، وأعطانـــا عطيّـــة الإيمان بالمسيح حتى ننال غفرانًا لخطايانا. كم أنـــت عظـــيم يارّبّ!

تأكيد الخلاص

إن كان خلاصنا معتمدًا على حريتنا الشخصيّة الـــتي قبلنا المسيح من خلالها، وإن كان الله قد قام بدوره في تقـــديم ذبيحة المسيح البديلة، ولكنه لم يعطنا الإيمان، فإننا في حالـــة يُرْثى لها. فَكِّرْ في الأمر! إن ثباتنا في الإيمان من عدمـــه أمـــرٌ يعتمد علينا. ياله من أمر مفزع ومخيف! أيعتمد الخلاص علينا نحن الذين بالطبيعة نميل نحو الخطيّة؟! ولا نحب الله؟! إننا، حتى المؤمنين منا، مازلنا نصارع الإنسان العتيق. لا، لا يمكـــن أن يكون الأمر كذلك. الخلاص للرّبّ، ولا يعتمد علينا. إن قلنا إن الخلاص يعتمد علينا، فربما نفقده غدًا. ربما أجـــد نفســـي منساقةً نحو شهواتي القديمة، وربما يشـــكّكني المشـــكّكون في صدق وعود الله!

أمّا الفكر المُصلَح، فيؤكد على أن مصدر الخـــلاص ثابت في الله وحده، وليس الإنسان. وكذلك يؤمن بأنه وُهِبَ

لنا أن نؤمن أيضًا. لقد قدّم المسيح نفسه على الصليب، وأعطانا الله الآب هبة الإيمان بالمسيح. هكذا يفقد الأرمينيّون بهجة هذا اليقين؛ إذ يضعون ثقتهم في إيمان الإنسان وجهده، لا في محبة الله واختياره. شكرًا لله على نعمته، وعلى كلّ خير يأتي من لدنه—حتى الإيمان الذي به نتمتع بعمل المسيح الكفاريّ. حمدًا لنعمته واختياره.

الفصل

الرابع

الكفارة الفعّالة

الكفارة الفعّالة

أصل المشكلة

لأجل مَنْ مات المسيح؟ مَنْ هم الذين مات المسيح من أجل خطاياهم؟ ولِمَنْ فعل المسيح كلّ هذا؟ ومَنْ هم الذين صالحهم المسيح بموته مع الله؟ لِمَنْ كان المسيح بديلاً؟ ما هو هدف وقصد المسيح من الموت على الصليب؟ هل كان القصد أن يخلّص كلّ الناس؟ أم أن يخلّص "شعبه" المختارين فقط؟

لقد تعامل المؤمنون مع هذه الأسئلة بطريقتيْن مختلفتيْن. من ناحية، يقول أصحاب الفكر الأرمينيّ إن المسيح مات من أجل كلّ شخص بدون فرق؛ بينما يؤكد المُصْلَحون على أن المسيح مات من أجل المختارين (المؤمنين). وهكذا، فالأرمينيّون يعلّمون بالكفارة العالميّة (من أجل كلّ العالم بدون فرق)، بينما يؤمن أتباع الفكر المُصْلَح بالكفارة الفعّالة (كفارة فعّالة في المؤمنين فقط).

ويؤمن أتباع المذهب الأرمينيّ بأن المسيح مات من أجل كلّ الناس بشكل مطلق بمن فيهم عيسو ويهوذا

الإسخريوطيّ. ويقولون إن المسيح كَفَّرَ عن خطايا المرفوضين، والذين يرفضون المسيح، وأولئك الذاهبين للجحيم. ويميّز هؤلاء بين ما فعله المسيح (المسيح مات من أجل الكلّ)، وبين ما حقّقه المسيح (لم ينل الكلّ الخلاص). بكلمات أخرى، فالمسيح لم "يسفك" دمه فحسب، بل "أهدره" تمامًا. لقد قصد أن يخلّص الكلّ، لكن ليس الكلّ سيخلصون. ولذا فجزء من دم المسيح قد "أُهْدِرَ" من دون نتيجة.

ويمكن تشبيه هذا الموقف اللاهوتيّ بقصة أحد الأمريكيين والذي حُكِمَ عليه بالإعدام شنقًا. ولكن قبل تنفيذ الإعدام بوقت قليل، منحه الرئيس چاكسون عفوًا. لكن هذا الرجل رفض قبول العفو، ولم يكتفِ بذلك، بل رفع قضيّة أمام المحكمة العليا مطالبًا بحقّه في الرفض. وقرّرت المحكمة أنه من حقّ الرئيس أن يصدر عفوًا عن أحدهم، ولكن لا يجب إرغام الشخص المعفو عنه على قبول مثل هذا العفو.

وعلى نفس المنوال، يؤمن الأرمينيّون بأن الله ربما يعطي الإنسان "عفوًا" عن خطاياه بسبب ما صنعه المسيح، ولكن يمكن لهذا الخاطئ أن يرفض "العفو الإلهيّ." إننا لا يجب أن ننسى أن الشخص الذي يرفض عفوًا مثل هذا إنما هو غائب العقل تمامًا!

وتأييدًا لهذا الزعم، يلجأ الأرمينيّون لنصّوص مثل (1 يو 2: 2؛ 2 كو 5: 14؛ يو 4: 42). كما ذكرنا من قبل،

فالمُصْلَحون يؤمنون بأن المسيح مات من أجل المختارين فقــط، من أجل المؤمنين فقط، من أجل أولئك الذين سيقضون، بسبب عمله، الأبديّة في السماء. لقد قصد المسيح أن تفيــد ذبيحتــه الكفاريّة أولئك الذين أعطاهم الآب له (يو 60: 37- 40).

إن كان المسيح قد حمل عقوبة الكلّ بشكل مطلــق، فيلزم أن يخلص الكلّ! غير أن هذا الافتراض ليس دقيقًــا؛ إذ يذهب البعض للجحيم. ويدّعم المشــيخيّون رأيهــم هــذا بالاستناد إلى الآيات الكتابيّة التي تخص المؤمنين، دون غيرهم، بشأن ما أنجزه المسيح على الصليب (مت 1: 21؛ يو 10: 15؛ قارن 10: 26؛ 15: 13؛ أع 20: 28؛ أف 5: 25)

وتتمثل المشكلة في تعبير "الكفارة المحدودة،" والــذي يرد في هذه الترجمة بتعبير "الكفارة الفعّالة." يظن كــثيرون أن الفكر المُصْلَح يقلّل من كفاية كفارة المسيح. لكن على العكس، فالتعليم عن الكفارة المحدودة (الفعّالة) لا ينــادي بمحدوديّــة كفارة المسيح من ناحية القوة، إطلاقًا. بل على العكــس مــن ذلك، إذ ينادي هذا التعليم بقيمة كفارة المسيح القويّــة، الــتي تخلّص إلى التمام. الكفارة ليست محدودة في قوتها وقيمتها. هذا ظنٌ خاطئ. إنها كفارة محدودة بالنظر إلى "مجالها" و"إطارهــا." لقد مات المسيح بالفعل من أجل المختارين، من أجل أولئــك الذين أحبهم، وعرفهم الآب منذ الأبد، وأولئك هم فقط الذين كفّر المسيح عن خطاياهم. إن كفارة المسيح لا حــدّ لهــا في

قيمتها. إنها قيّمة جدًّا، لكنها مؤثرة وفعّالة فقط في المختـــارين، وهي ليست محدودة أبدًا في قوتها.

يتسّبب مصطلح "الكفارة المحدودة" في سوء فهم عند الكثيرين، لذا فثمة مصطلحات بديلة تزيل هذا اللبس، منـــها: "الكفارة الفعّالة" أو "الكفارة الخاصة." وكما هـــو واضـــح، فهذه المصطلحات البديلة تؤكد على أن الكفارة، مع أنها غير محدودة في قوتها، "خاصة" "وفعّالة" فقط في المختارين. ومادام هذا الفرق واضحًا، فلا يهم إن كنا نستخدم لقب "الكفـــارة المحدودة،" أو "الكفارة الخاصة."

ماذا يقول الكتاب المقدّس؟

قبل أن أتعرض لرأي الكتاب المقدّس في هذا الأمـــر، أريد أن أسلّط الضوء على نصّين بالتحديد، ألا وهما: (يو 10: 15؛ أف 5: 25).

يستخدم الرّبّ يسوع في النصّ الأول تشبيه الراعـــي والقطيع، قائلاً إنه الراعي وأن له قطيعًا. هو يعرف قطيعـــه، وكذلك فالقطيع يعرفه، ويسمع صوته، ويعرفه، ويتبعه، وهو يعطيهم الحياة الأبديّة. وبالتالي فلن يهلكوا أبدًا. القطيع هـــو المختارون، ومن أجل هذا القطيع فقط قال المسيح إنه سيضع نفسه "أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ، وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ" (يو 10: 11). وفي الآية (15) يقولها ثانية، "كَمَا أَنَّ

الآبَ يَعْرِفُنِي وَأَنَا أَعْرِفُ الآبَ. وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِي عَنِ الْخِرَافِ." هذا هو مفهوم "الكفارة الفعّالة." إنه يفدي قطيعه—وقطيعه فقط. وفي (يو 10: 26)، يقول، "وَلكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي، كَمَا قُلْتُ لَكُمْ. خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي، وَأَنَا أَعْرِفُهَا فَتَتْبَعُنِي." إذًا، يخاطب المسيح أولئك الذين لم يؤمنوا به واصفًا إياهم بأنهم ليسوا من الخراف، أي أن المسيح يقول إن هؤلاء ليس من خرافه الذين من أجلهم وضع حياته. هذه هي "الكفارة الفعّالة."

وفي (أف 5: 25- 27) يحث الرسول بولس الأزواج في كنيسة أفسس علي أن يحبوا زوجاتهم كما أحب المسيح الكنيسة، وأسلم نفسه من أجلها. وهكذا يذكر النصّ، وبوضوح، أن كفارة المسيح هي كفارة من أجل الكنيسة فقط وليس كلّ العالم. والأكثر من ذلك، فالرسول بولس يقول إن المسيح بذل حياته من أجل الكنيسة ليقدّسها، ويجعلها كاملة. وهذا يظهر مدى العلاقة الوثيقة بين موت المسيح من أجل الكنيسة، وبين تقديسه لها، وتطهيره إياها. لقد طهّر، وقدّس المسيح أولئك الذين مات من أجلهم. ولأن العالم ليس طاهرًا أو مقدّسًا، فيتضح، إذًا، أن المسيح لم يضع نفسه من أجل العالم، بل من أجل الكنيسة.

بالإضافة إلى ذلك، لو كان افتراض الفكر الأرمينيّ صحيحًا (المسيح أحب كلّ العالم ومات من أجل كلّ العالم

بشكل مطلق)، فالتوازي الوارد ذكره في أفسس 5 بين الزوجة والكنيسة لا يصبح قائمًا. وسيصبح ممكنًا أن يحب الزوج ليس فقط زوجته، بل أيّ امرأة أخرى—تمامًا كما أن المسيح أحب كلّ العالم، بشكلّ مطلق، وأسلم نفسه من أجل الكلّ بنفس الطريقة. لكن هذا التعليم يناقض، بالطبع، الكتاب المقدّس الذي يعلّم بوجوب زواج الرجل من امرأة واحدة.

والآن لننظر إلى بعض ما يقوله الكتاب المقدّس بخصوص الكفارة الفعّالة، من منظور الآب، والابن، والروح القدس، لنرى كيف يعمل الثالوث الإلهيّ في تناغم وانسجام.

دور الآب: الاختيار

إن كان الفكر الأرمينيّ صحيحًا في تعليمه ضدّ الاختيار، وإن كان الله لم يعيّن البعض للحياة الأبديّة منذ الأزل، وإن كان الله لم يحب البعض بشكل خاص، وإن لم يكن الله قد قصد منذ البدء أن يخلّص شعبه، وشعبه فقط، فلا مكان للكفارة الفعّالة، بل هناك كفارة عامة تشمل الكلّ وبشكل مطلق. لكن تسير محبة الله غير الخاصة مع الكفارة غير الخاصة، والمحبة الشموليّة مع الكفارة الشموليّة، والمحبة غير المميّزة مع الكفارة غير المميّزة، واختيار الله لكلّ العالم مع كفارة المسيح عن كلّ العالم. إن لم يكن الله قد أحب البعض بمحبة خاصة، فيلزم أن نؤمن بأنه أرسل المسيح يسوع لكي يموت ويخلّص الكلّ بشكل مطلق. إن الفكر الأرمينيّ محقّ في

ربطه محبة الله بكفارة المسيح. فموضوع محبة الله هـو بذاتـه موضوع كفارة المسيح؛ فثمة وحدة بين عمـل الله وكفـارة المسيح. وفي هذا يتفق الفكر المُصْلَح مع الفكر الأرمينيّ. لكن الكتاب المقدّس واضح جدًّا في هذا المجال، فلم يحب الله كـلّ العالم بنفس القدر.

- "إِيَّاكُمْ فَقَطْ عَرَفْتُ مِنْ جَمِيعِ قَبَائِلِ الأَرْضِ لِـذَلِكَ أُعَاقِبُكُمْ عَلَى جَمِيعِ ذُنُوبِكُمْ" (عا 3: 2).
- "لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَـبَقَ فَعَيَّـنَهُمْ لِيَكُونُـوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ لِيَكُونَ هُوَ بِكْـرًا بَـيْنَ إِخْـوَةٍ كَثِيرِينَ" (رو 8: 29).
- "كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَحْبَبْتُ يَعْقُوبَ وَأَبْغَضْتُ عِيسُوَ" (رو 9: 13).
- "إِلَى جَمِيعِ الْمَوْجُودِينَ فِي رُومِيَةَ أَحِبَّاءَ اللهِ مَدْعُوِّينَ قِدِّيسِينَ: نِعْمَةٌ لَكُمْ وَسَلاَمٌ مِنَ اللهِ أَبِينَا وَالرَّبِّ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" (رو 1: 7).
- "عَالِمِينَ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الْمَحْبُوبُونَ مِنَ اللهِ اخْتِيَـارَكُمْ" (1تس 1: 4).
- "وَأَمَّا نَحْنُ فَيَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَشْكُرَ اللهَ كلَّ حِينٍ لأَجْلِكُمْ .... أَنَّ اللهَ اخْتَارَكُمْ مِنَ الْبَدْءِ لِلْخَلاَصِ، بِتَقْـدِيسِ الرُّوحِ وَتَصْدِيقِ الْحَقِّ" (2تس 2: 13).

- "يَهُوذَا، عَبْدُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَأَخُو يَعْقُوبَ، إِلَى الْمَدْعُوِّينَ المقدّسينَ فِي اللهِ الآبِ، وَالْمَحْفُوظِينَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ" (يه 1).

ولأن موضوع محبة الله محدّد، وخاص، فموضوع كفارة المسيح هو أيضًا محدّد. ولأن الله أحب المختارين محبة خاصة، ولم يحب الكلّ بنفس القدر، ولأنه-وبسيادته المطلقة- عيّن البعض، وليس الكلّ للحياة الأبديّة، فقد أرسل-تعالى- ابنه الوحيد كي يضع نفسه من أجلهم، ومن أجلهم هم فقط. وحيث إن الاختيار محدّد، فالكفارة محدّدة وفعّالة أيضًا؛ وحيث إن الاختيار خاص، فالكفارة هي أيضًا خاصة. إن محبة الله، التي بموجبها اختار الكنيسة، تسير جنبًا إلى جنب مع كفارة المسيح وموضوع الاثنين (المحبة والكفارة) واحد؛ ذلك لأن ثمة وحدة تربط بين عمل الآب والابن.

هكذا أحب الله العالم (الخطاة المختارين) حتى بذل ابنه الوحيد (يو 3: 16). ويجب أن نلاحظ أن كلمة العالم هنا لا تعني الكلّ بشكل مطلق. هي لا تعني المختارين والمرفوضين، بل تشير إلى المختارين من كلّ أجناس وقبائل الأرض، وليسوا فقط من شعب الله في القديم.

ولأن الله أعطى المختارين للابن، فقد جاء المسيح إلى العالم ليضع نفسه من أجلهم. قال المسيح، "كلّ مَا يُعْطِينِي الآبُ فَإِلَيَّ يُقْبِلُ وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا. لأَنِّي قَدْ

نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ لأَعْمَلَ مَشيئَتِي بَـــلْ مَشــيئَةَ الَّـــذي أَرْسَلَنِي. وَهَذه مَشيئَةُ الآب الَّذي أَرْسَلَني: أَنَّ كَلَّ مَا أَعْطَاني لاَ أُتْلفُ منْهُ شَيْئاً بَلْ أُقيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخير. لأَنَّ هَـــذه هـــيَ مَشيئَةُ الّذي أَرْسَلَني: أَنَّ كلَّ مَنْ يَرَى الاَبْنَ وَيُؤْمنُ به تَكُـــونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَديّة وَأَنَا أُقيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخيرِ" (يـــو 6: 37- 40). لقد كان هناك هدف واضح ومحدّد في ذهن المسيح، ويتماشى هذا الهدف تمامًا مع مقاصد الآب الأزليّة. لم يهدف المسيح أن يموت بشكل مطلق من أجل كلّ شخص في العالم، فقد قال، "كلّ مَا يُعْطِينِي الآبُ فَإِلَيَّ يُقْبِلُ وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَـــيَّ لاَ أُخْرِجْـــهُ خَارِجًا" (يو 6: 37). وهكذا يظهـــر أن قصـــد الله الأزليّ لا يتمثل في خلاص الكلّ بشكل مطلـــق، بـــل في أن يخلّـــص المختارين، وألاّ يفقد منهم أحد على الإطلاق. "وَهَذه مَشيئَةُ الآب الَّذي أَرْسَلَني: أَنَّ كلّ مَا أَعْطَاني لاَ أُتْلفُ منْهُ شَيْئاً بَلْ أُقيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخير" (يو 6: 39). ومن أجل هذا الأمر فقط أتى المسيح. "لأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ لأَعْمَلَ مَشِـــيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي" (يو 6: 38).

كتب الرسول يوحنا، "فِي هَذَا هِيَ الْمَحَبَّةُ: لَيْسَ أَنَّنَا نَحْنُ أَحْبَبْنَا اللهَ، بَلْ أَنَّهُ هُوَ أَحَبَّنَـــا، وَأَرْسَـــلَ ابْنَـــهُ كَفَّـــارَةً لخطايانا" (1يو 4: 10). هذه إشارة أخرى واضـــحة تؤكـــد الوحدة بين محبة الله وكفارة المسيح. إن موضوع محبة الله هو موضوع كفارة السيد المسيح. والضمير "نحن" لا يشير لكـــلّ

العالم بشكل مطلق، بل للمؤمنين الذين غفرت خطيئتهم (2: 12)، الذين انتصروا على الشرير (2: 13)، والذين هم أبناء الله (3: 1، 2). بكلمات أخرى، لقد مات المسيح من أجل أولاد الله، الذين أحبهم الله بمحبة خاصة جدًّا.

ويربط الرسول بولس بين موضوع كفارة المسيح وموضوع محبة الله فيقول في (رو 5: 8) "وَلَكِنَّ اللهَ بَيَّنَ مَحَبَّتَهُ لَنَا لأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لأَجْلِنَا." إن موضوع محبة الله هو المختارون: "نحن." ومن أجل نفس الجماعة المفديّة مات المسيح. ومن أجل هذه المحبة المميّزة للقديسين "نحن،" (1: 7) "والمبرّرين" (5: 1) مات المسيح.

لكن يبدو أن أقوى نصّ، في الكتاب المقدّس، يؤكّد على هذه العلاقة بين المحبة الإلهيّة وكفارة المسيح هو (رو 8: 32). وهذا النصّ واضح جدًّا، وهو أيضًا النصّ الذي يلجأ إليه المؤمنون بأن كفارة المسيح تشمل الكلّ بشكل مطلق. يقول الرسول بولس، "اَلَّذِي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أَيْضًا مَعَهُ كُلَّ شَيْءٍ؟" (رو 8: 32). يبدو للوهلة الأولى أن الرسول بولس يقول إن المسيح مات من أجل الكلّ بشكل غير مميّز. ولكن النظرة الأعمق للنصّ تؤكد استحالة هذا الظن. إن كلمة "كلّ" هنا إنما تشير فقط إلى "كلّ" المختارين، ولا يمكن أن تشير لكلّ فرد في كلّ العالم. والسبب في ذلك هو حقيقة أن (رو 8: 28) حتى نهاية الفصل

إنما تتكلم عن المؤمنين فحسب. ويشير كلّ شيء في النصّ قبل الآية 32 وبعدها إلى المختارين. لا تعمل كلّ الأشياء للخير لكلّ الناس، بل من أجل أولئك الذين يحبون الله، المدعوين حسب قصده (ع 28). ومواعيد الله هي فقط من أجل الذين سبق الله وعرفهم، وسبق وعينهم، وسبق وبرّرهم، وسبق ومجدهم (ع 29- 30). يقول الرسول بولس عن هؤلاء فقط "اَلَّذي لَمْ يُشْفِقْ عَلَى ابْنِهِ بَلْ بَذَلَهُ لأَجْلِنَا أَجْمَعِينَ كَيْفَ لاَ يَهَبُنَا أيضًا مَعَهُ كلّ شَيْءٍ؟" (ع 32). إنَ "أجمعين" هنا يجب أن تفهم في قرينتها.

ومن ثمّ، فالرسول بولس يتحدث في الآية التالية مباشرة عن المختارين "مَنْ سَيَشْتَكِي عَلَى مُخْتَارِي اللهِ؟ اَللّهُ هُوَ الَّذِي يُبَرِّرُ!" (ع 33) والفكرة ببساطة هي أنه لا يمكن أن يشتكي أحد على المختارين؛ إذ مات المسيح لأجلهم. هل ترى الآن الارتباط الوثيق بين الاختيار وكفارة المسيح؟ إن أيّ شيء في النصّ الذي يسبق أو يلي الآية 32 إنما يتحدث عن المختارين الذين أحبهم الله. وهكذا يبدو جليًّا أن هذه الآيات لا تتحدث عن كفارة شموليّة، تصل لكلّ الناس، في كلّ العصور، بشكل مطلق؛ بل، على العكس، فالنصّ يتحدث عن المختارين، المحبوبين من الله. وهذه هي الكفارة الفعّالة.

إن هذا التعليم يعطي تعزيةً كبيرة في وقت الأزمات. يقول الرسول بولس إن كان الله قد أعطى أغلى ما عنده،

المسيح يسوع، من أجل أولئك الذين أحبهم، فلسوف يعطينا أيّ شيء يمكن أن نحتاجه. لذا، لا تقلق ولا ترهب الغد. تذكّر أن الله بذل المسيح من أجلك، وبالتالي فإن أيّ شيء صالح تحتاجه إنما هو، بالمقارنة، بسيط جدًّا، ولسوف يعطيك الله إياه. اشكر الله الآب، من أجل محبته واختياره، واشكر الله الابن من أجل كفارته من أجل الكنيسة.

في النهاية، فكما رأينا، يعلّم الكتاب المقدّس بأن عمل الله في الاختيار، وانجاز كفارة المسيح واحد: خلاص المختارين—دون غيرهم. وهكذا فالكفارة الفعّالة تعتمد اعتمادًا أساسيًا على الاختيار غير المشروط.

دور الابن الكفاري

نعود الآن للسؤال: "لأجل مَنْ مات المسيح؟" وللإجابة على هذا السؤال، يجب أن نضع تعريفًا وافيًا لكلمة "مات." ماذا فعل المسيح بموته على الصليب؟ إن هذا هو قلب المشكلة. يصف الكتاب المقدّس موت المسيح بأربعة طرق مختلفة. حين مات المسيح:

- قدّم جسده ذبيحة كفاريّة بديلة عن الخطيّة (عب 9، 10).
- أرضى عدالة الله (رو 3: 25؛ عب 2: 17؛ 1يو 2: 2؛ 4: 10).

- صالح بموته شعبه مع الله، وهكذا أزال العداوة التي كانت قائمة بين شعبه وبين الله (رو 15: 10؛ 2كو 5: 20).
- فدى المسيح بموته شعبه من لعنة الناموس (غل 3: 13).

لكن السؤال الآن: "هل بالفعل قدّم المسيح بموته على الصليب جسده ذبيحة كفاريّة بديلة أم لا؟ إن كان الأمر كذلك، فليس من الممكن أن تكون هذه الذبيحة من أجل كلّ العالم؛ لأنه إن كانت ذبيحته من أجل كلّ العالم، فحتمي أن يخلص كلّ العالم."

هل صار المسيح حقًّا (وليس فرضًا) لعنة من أجل يهوذا الإسخريوطيّ (غل 3: 13) حتى صار الأخير خارج دائرة لعنة الناموس؟ بالطبع لا. يقول الرسول بولس إن المسيح صار لعنة لأجلنا، لأجل الكنيسة في غلاطيّة، ولأجل كلّ المختارين. ولكن، لأن يهوذا الإسخريوطيّ لم يكن من المختارين، فقد قضى مصيره الأبديّ في الجحيم، صائرًا تحت لعنة الناموس. ولم يمت المسيح من أجل يهوذا الإسخريوطيّ.

هل مات المسيح بالفعل، وليس نظريًّا، من أجل عيسو وصالحه مع الآب (رو 5: 10)؟ هل أزاح العداوة التي كانت قائمة بينه وبين الآب؟

للأمر احتمالان. لو كان المسيح قد صالح عيسو مع الآب، وصار لعنة من أجل يهوذا الإسخريوطيّ، واحتمل

العذاب على الصليب من أجل كلّ الناس بشكل مطلــق، إن كان كلّ هذا صحيحًا، فلا يمكن أن يهلك أيّ شخص. بــل يصير ساعتها الكلّ مفديًّا ومصالحًا مع الله الآب. غير أن هذا الاستنتاج يتعارض مع الكتاب المقدّس، وكذلك مع الواقع.

إن طبيعة الكفارة—الانجاز الحقيقيّ للمسيح علــى الصليب—تجيب على السؤال موضع النقاش: "مِنْ أجل مَــنْ مات المسيح؟" إن لم تكن الكفارة كفارة مخلّصة، وإن لم تكن قد أزالت لعنة الخطيّة بشكل حقيقيّ، فيمكن أن تكون لكــلّ العالم، حتى هؤلاء الذين هم الآن في الجحيم. لكــن مــوت المسيح، كما يعلّمنا الكتاب المقدّس، يؤكد على أن كفارته لم تكن من أجل كلّ العالم بشكل مطلق: من أجل كلّ شخص، في كلّ زمان، ومكان. وإلا لكان الكلّ قد نال الخلاص! لكننا نعلم أن ليس الكلّ مخلّصًا.

أيّ الاحتمالَيْن صحيح؟ إمّا أن تكون الكفارة محدودة (فعّالة) فيمَ تصل إليه، أو أن تكون محدودة في طبيعتها وقوتها. وليس من الممكن أن يكون الاحتمالان صحيحَيْن. إن كانت الكفارة غير محدودة فيمَ تصل إليه، أيّ أنه إن كان المسيح قد مات من أجل كلّ الناس، بشكل مطلق، كما يقول الفكــر الأرمينيّ، فليس من الممكن أن تكون غير محدودة في طبيعتــها وقوتها، وساعتها يجب أن يخلص الكل—كلّ إنسان في كــلّ زمان، وكلّ مكان. ولأن الفكر الأرمينيّ يؤمن بمثــل هــذه

الكفارة غير المحدودة فيمَ تصل إليه، فيالها من كفارة ضعيفة، وغير مجدية تلك التي لا تقدر أن تخلّص الكلّ!

ولكن إن كانت الكفارة غير محدودة في فعاليتها، كما يعلّم الكتاب المقدّس، فهي كفارة مخلّصة، ويلزم أن يكون موضوعها (ما تصل إليه) محدودًا، أيّ: المختارون. وهكذا يظهر واضحًا أن الكتاب المقدّس يعلّم بأن كفارة المسيح فعّالة فيمَ تصل إليه من نتائج، إذ أنها تخلص المختارين دون غيرهم. هي كفارة معينة، خاصة، فعّالة، محدّدة.

حين ندرك أن الكفارة هي أمر حقيقيّ واقعيّ وليست أمرًا قصصيًّا، أيّ أن المسيح حمل، بالفعل، ذنب الخطايا، فيمكننا حينئذ أن نفهم كيف أن قصة الشخص المحكوم عليه بالإعدام، والذي منحه الرئيس جاكسون عفوًا، إنما هي غير دقيقة في هذا السياق. لقد كان هذا الرجل قادرًا على رفض قبول العفو. ولو كان شخص آخر هو الذي نال القصاص مكانه، لما كان القضاء قادرًا على تنفيذ حكم الإعدام نفسه في شخصيْن. أمّا فيمَ يتعلق بالكفارة، فلا يوجد غفران بدون ذبيحة بديلة. لقد مات المسيح بالفعل من أجل الخطاة. وقدّم بالفعل جسده كذبيحة من أجل خطايا شعبه. وتَحمّلَ العقاب الإلهيّ من أجل أحبائه. أمّا الرجل المحكوم عليه بالإعدام، فلم يكن له بديل يموت من أجله. ولو كان قد قبل العفو الرئاسيّ، لكانت كلّ مطاليب القضاء تسقط حالاً.

أمّا في القانون الإلهيّ فلا يمكن أن يحدث هذا الأمر. يجب أن يدفع أحدهم أجرة الخطيّة، إمّا الشخص المذنب نفسه، أو شخص آخر: المسيح.

دور الروح القدس: سكر الروح

يقول الرسول بولس، "لأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ تَحْصُرُنَا. إِذْ نَحْنُ نَحْسِبُ هَذَا: أَنَّهُ إِنْ كَانَ وَاحِدٌ قَدْ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ. فَالْجَمِيعُ إِذاً مَاتُوا. وَهُوَ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ كَيْ يَعِيشَ الأَحْيَاءُ فِيمَ بَعْدُ لاَ لأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لِلَّذِي مَاتَ لأَجْلِهِمْ وَقَامَ" (2كو 5: 14- 15). هذا النصّ هو نموذج آخر لنصّ يبدو، في ظاهره، مدعمًا لفكرة الكفارة الشاملة، لكلّ فرد في العالم. ولكن النصّ في جوهره يتحدث عن عكس ذلك، تمامًا. غالبًا ما يفهم الكثيرون عبارة "مات من أجلنا" كإشارة للكفارة غير المحدودة. أيّ أن المسيح مات بالفعل من أجل كلّ شخص في العالم. إلا أن الدراسة الدقيقة للنصّ تثبت عكس ذلك.

لاحظ، بشكل خاص، كلمة "إذًا." يقول الرسول بولس، "لأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ تَحْصُرُنَا. إِذْ نَحْنُ نَحْسِبُ هَذَا: أَنَّهُ إِنْ كَانَ وَاحِدٌ قَدْ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ. فَالْجَمِيعُ إِذاً مَاتُوا. وَهُوَ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ كَيْ يَعِيشَ الأَحْيَاءُ فِيمَ بَعْدُ لاَ لأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لِلَّذِي مَاتَ لأَجْلِهِمْ وَقَامَ" (ع 14، 15). بسبب موت المسيح، كما يقول الرسول بولس، مات الجميع. إن ثمة

علاقة قويّة، وغير منفصلة بين موت المسيح، وموت الجميع. إن عبارة "إذًا" تتحدث عن علاقة سببيّة. وهكذا، فعبارة "مات الجميع" لا تشير للموت الطبيعيّ لكلّ الناس؛ حيث إن موت المسيح ليس هو السبب وراء الموت الطبيعيّ، إنما تشير هذه العبارة للموت الروحيّ للمؤمنين. إنها تشير لنفس نوع الموت المذكور في روميّة 6، حيث يتحدث الرسول بولس عن المؤمنين المتّحدين مع المسيح بموته. لقد "مات" المؤمنون عن الخطيّة بفضل عمل الروح القدس في قلوبهم. ومن هذا المنطلق، يتضح أن ليس الكلّ قد "مات،" إذ يحيا الكثيرون في الخطيّة. وليس من المعقول، إطلاقًا، أن يكون المسيح قد مات من أجلهم؛ حيث إن ثمة علاقة وطيدة تربط بين موت المسيح وموتهم عن الخطيّة.

إن كلمة "كلّ" الواردة هنا تعني "كلّ" المؤمنين، وكما رأينا فلا يمكن أن تعني "كلّ" العالم، بما فيه من مختارين ومرفوضين، فلم يمت المرفوضون عن الخطيّة إطلاقًا.

وفي نفس المجال، يلاحظ الرسول بولس، كما فعل في روميّة 6، أنه إن كان المؤمنون أمواتًا عن الخطيّة، فهم، بالتالي، أحياء في المسيح. إن كان المؤمنون مدفونين مع المسيح فهم سيقومون روحيًّا معه. ومع أن الرسول بولس لا يتحدث عن أمر القيامة الروحيّة، بشكل صريح، إلا أننا نعرف من خلال بقيّة الكتاب المقدّس أن هذا العمل مقصور على الروح القدس.

ثمّ يذهب الرسول بولس إلى أبعد من ذلك ليؤكّد على أن محبة المسيح إنما تحفز المؤمنين على الحياة التقيّة، إذ يقول، "وَهُوَ مَاتَ لأَجْلِ الْجَمِيعِ كَيْ يَعِيشَ الأَحْيَاءُ فِيمَ بَعْدُ لاَ لأَنْفُسِهِمْ، بَلْ لِلَّذِي مَاتَ لأَجْلِهِمْ وَقَامَ" (ع 15). وهذا يؤكّد أن (2كو 5: 14- 15) يحتوي على سلسلة من الأحداث المترابطة:

- المسيح مات من أجل المؤمنين،
- ويلزم أن يكون هؤلاء المؤمنون قد ماتوا روحيًّا عن الخطية بموت المسيح،
- يقوم المؤمنون روحيًّا في المسيح.

ولأن الفكر الأول صحيح يلزم أن تكون الفكرتان الثانية والثالثة صحيحتيْن أيضًا. وهكذا نجد أن هذه الآيات لا تتحدث إطلاقًا عن "كلّ" العالم، أو غير المؤمنين بل إنها تتحدث عن أولئك الذين ماتوا عن الخطيّة، والذين قاموا روحيًّا في المسيح، والذين يحيون فيه الآن. إن هذه الفقرة تتحدث عن المؤمنين فحسب. وهذه هي الكفارة الفعّالة.

هذا هو مخطط الخلاص في روعته. لم يختر الله الآب الجميع للخلاص، بل أحب خاصته فقط: المؤمنين؛ ولم يمت المسيح من أجل كلّ "العالم" بدون تمييز، بل حمل خطيّة خاصته فقط: المؤمنين؛ ولم يجعل الروح القدس موت المسيح

ذا فائدة في حياة كلّ الناس تاركًا أمر الخـــلاص في أيــــديهم. لكن بالأحرى، يعلّم الكتاب المقدّس بوحدة جوهريّة في عمل الأقانيم. وحدة تشمل اختيار الله الآب، ومحبـــة الله الابـــن، وسكنى الله الروح القدس. ولأن الله قد سبق وأحب المختارين قبل تأسيس العالم (رو 8: 29)، فقد أرسل الله ابنـــه ليمـــوت عنهم، ولم يفقد الابن أيًا منهم (يو 6: 39)، بل صار لعنة من أجلهم، وفداهم، وصالحهم مع الله الآب. ثمّ جـــاء الـــروح القدس إلى قلوبهم ليجعلهم أمواتًا عن الخطيّة، ويعطيهم حيـــاة روحيّة، أي ليلدهم ميلادًا جديدًا. إن ثمة توافقًا بين عمل الله الآب، وعمل الله الابن، وعمل الله الروح القـــدس، ويعمـــل الثالوث الإلهيّ في تناغم، وانسجام كامل لفداء المختارين.

اعتراضات

ظهرت، وبشكل تقليديّ، عدة اعتراضـــات علـــى عقيدة الكفارة الفعّالة. دعنا ننظر لثلاث منهم.

الإنجيل مقدّم للجميع

يقول البعض، "إن لم يكن المسيح قد حمل خطيّة كلّ الناس، وإن لم تكن إرادة الله الآب، والله الابن، والله الـــروح القدس أن يخلّص العالم كله، إذًا، فكيف يمكن القول بـــأن الله يقدّم الخلاص للجميع: للمختارين، وللمرفوضين على حـــد سواء؟

في الحقيقة، نحن أمام سرّ عظيم! فمن ناحيّة، يعلّم الكتاب المقدّس عن أمر الاختيار؛ ومن ناحية أخرى، يعلّم، وبشكل واضح جدًّا، بأن الله يقدّم بشارة الإنجيل للجميع.

يقول الوحي المقدّس، "حَيٌّ أَنَا يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبّ، إِنِّي لاَ أُسَرُّ بِمَوْتِ الشِّرِّيرِ، بَلْ بِأَنْ يَرْجِعَ الشِّرِّيرُ عَنْ طَرِيقِهِ وَيَحْيَا. اِرْجِعُوا ارْجِعُوا عَنْ طُرُقِكُمُ الرَّدِيئَةِ. فَلِمَاذَا تَمُوتُونَ يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ؟" (حز 33: 11). ويقول النبي إشعياء "أَيُّهَا الْعِطَاشُ جَمِيعًا هَلُمُّوا إِلَى الْمِيَاهِ وَالَّذِي لَيْسَ لَهُ فِضَّةٌ تَعَالُوا اشْتَرُوا وَكُلوا. هَلُمُّوا اشْتَرُوا بِلاَ فِضَّةٍ وَبِلاَ ثَمَنٍ خَمْرًا وَلَبَنًا" (إش 55: 1). ويقول في موضع آخر، "اِلْتَفِتُوا إِلَيَّ وَاخْلُصُوا يَا جَمِيعَ أَقَاصِي الأَرْضِ لأَنِّي أَنَا اللهُ وَلَيْسَ آخَرَ" (إش 45: 22). ويضيف المسيح قائلاً، "تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتْعَبِينَ وَالثَّقِيلِي الأَحْمَالِ وَأَنَا أُرِيحُكُمْ" (مت 11: 28). ويقول أيضًا، "يَا أُورُشَلِيمُ يَا أُورُشَلِيمُ يَا قَاتِلَةَ الأَنْبِيَاءِ وَرَاجِمَةَ المرسلِيْنَ إِلَيْهَا كَمْ مَرَّةٍ أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْلاَدَكِ كَمَا تَجْمَعُ الدَّجَاجَةُ فِرَاخَهَا تَحْتَ جَنَاحَيْهَا وَلَمْ تُرِيدُوا" (مت 23: 37). ويؤكد الرسول بطرس على نفس الأمر فيقول، "لاَ يَتَبَاطَأُ الرَّبّ عَنْ وَعْدِهِ كَمَا يَحْسِبُ قَوْمٌ التَّبَاطُؤَ، لَكِنَّهُ يَتَأَنَّى عَلَيْنَا، وَهُوَ لاَ يَشَاءُ أَنْ يَهْلِكَ أُنَاسٌ، بَلْ أَنْ يُقْبِلَ الْجَمِيعُ إِلَى التَّوْبَةِ" (2بط 3: 9).

الآن، كيف يمكن أن نوّفق بين هاتيْن الفكرتيْن؟ ألا تثبت الآيات سالفة الذكر أن المسيح مات بالفعل من أجل

كلّ الناس؟ إن كان الله يقدّم رسالة الإنجيل للجميع، فلابد من أن وسيلة خلاصهم قد تمّ تدبيرها أيضًا.

مرة أخرى، نحن أمام سرّ إلهيّ! إن طرق الله أعظم وأسمى من طرقنا، وكذلك أفكاره بالنسبة لأفكارنا. إننا كبشر لا يمكن أن نصالح بين هاتيْن الفكرتيْن؛ لأننا نراهما متناقضتيْن. لكن يجب أن نتذكر أن كلمة الله، الجديرة بكلّ تصديق، تعلّم هذيْن الأمريْن. وبالتالي، علينا أن نقبلهما، وأن نتذكر أننا "بشر" لا يمكن أن نفهم كلّ طرق الله. علينا أن نتواضع، وأن نعترف بمحدوديتنا كمخلوقات. علينا، أيضًا، أن نسأل "هل يتحدث الكتاب المقدّس عن هاتيْن الحقيقتيْن اللتيْن تبدوان متناقضتيْن؟" إن كان الأمر كذلك، فلابد لنا من أن نقبلهما معًا. ليس لنا حق المفاضلة أو الاختيار بينهما. وليس لنا حق اختيار ما يتماشى مع أذهاننا المحدودة، وترك الحقيقة الأخرى؛ لأن الله أعظم من عقولنا.

عالميّة الخلاص

هناك فقرات أخرى تتحدث عن عالميّة الخلاص. يبني الكثيرون اعتراضهم على تعليم الكفارة الفعّالة بناءً على فقرات يروْن فيها أن المسيح مات من أجل خطايا كلّ العالم (1يو 2: 2)، وأنه مخلّص كلّ العالم (يو 4: 2)، وأنه حمل خطايا كلّ العالم (يو 1: 29)، وأنه مات من أجل الكلّ (2كو 5: 14- 15)، وأنه فدية من أجل الكلّ (1تي 2: 6). ويقول

هؤلاء إن كان المسيح قد مات من أجل كلّ العالم، فلا يمكن أن تكون كفارته محدودة فعّالة.

إن إجابة هذا الاعتراض تتمثل في حقيقة أن الكتاب المقدّس حين يستخدم كلمة "العالم" وكلمة "الكلّ" فإنه يستخدمها بطريقة محدّدة. ويلزم أن نفسّر كلمات مثل هذه في ضوء القرينة، وفي ضوء بقيّة نصّوص الكتاب المقدّس. في الواقع، يجب أن تكون هذه الطريقة منهجًا لنا في تفسير نصوص الكتاب المقدّس، بشكل عام.

فعلى سبيل المثال، إن أوردت جريدة ما خبر غرق سفينة، وأن جميع الركاب تم إنقاذهم فإنه من الواضح جدًّا أن "الجميع" سالمون. لكن ليس معنى ذلك أن "جميع" سكان العالم سالمون. نفس الحق موجود في الكتاب المقدّس. فحين يقول البشير لوقا إن قيصر أمر بأن يكتتب "كلّ العالم" (لو 2: 1، 2)، فواضح أن كلمة "كلّ" لا تعني الكلّ بشكل مطلق؛ حيث لم يكتتب اليابانيّون أو الصينيّون أو الأنجلو-سكسونيّون.

وحين يؤكد الرسول بولس مرتيْن أن "كلّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي لَكِنْ لَيْسَ كلّ الأَشْيَاءِ تُوافِقُ. كلّ الأَشْيَاء تَحِلُّ لِي لَكِنْ لاَ يَتَسَلَّطُ عَلَيَّ شَيْءٌ... كَلّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي لَكِنْ لَيْسَ كَلّ الأَشْيَاءِ تُوافِقُ. كلّ الأَشْيَاءِ تَحِلُّ لِي وَلَكِنْ لَيْسَ كلّ الأَشْيَاءِ تَبْنِي" (1كو 6: 12؛ 10: 23)، فواضح أن كلامه ليس

مطلقًا بخصوص كلمة "كلّ." فليس يحل له أن يخطئ، على سبيل المثال.

وحين قال المسيح "وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ" (يو 12: 32)، فإنه من الواضح أن كلمة "الجميع" لا تعني الكلّ بشكل مطلق. فهناك الملايين من الأمم الذين عاشوا قبله، والذين لم يسمعوا به. وهناك ملايين أُخر سمعوا به، وقسّوا قلوبهم، و لم يؤمنوا به. لقد قصد المسيح أحد الأمرين: إمّا أن كلّ المختارين سيلتصقون بشخصه، أو أن المختارين سوف يأتون إليه من كلّ أمم وأجناس العالم. ثمة شيء أكيد هنا: لم يلتصق الجميع بالمسيح. إذًا، فكلمة "الجميع" هنا لا تعني الجميع بشكل مطلق.

وعلى نفس القياس، يكتب الرسول بولس في (1كو 15: 22) "لأَنَّهُ كَمَا فِي آدَمَ يَمُوتُ الْجَمِيعُ هَكَذَا فِي الْمَسِيحِ سَيُحْيَا الْجَمِيعُ." من الواضح أن الجميع (كلّ شخص في العالم) مات في آدم الأول (رو 5: 12). من المؤكد أن كثيرين لم يموتوا "في المسيح." هناك الكثيرون ممن لم يُصْلَبوا مع المسيح، وهناك الكثيرون ممن يكرهون المسيح.

في ضوء هذه الآيات، وغيرها، حيث لا تعني كلمة "الكلّ" كلّ الناس بشكل مطلق، لا يمكن أن يعتمد البعض على هذه النصوص للاعتراض على تعليم الكفارة الفعّالة. يجب أن نلتفت للقرينة. وحين درسنا قرينة (رو 8: 32؛ 2كو

5: 14، 15)، بعناية، اتضح لنا أن الرسول بولس يتحدث عن حقيقة موت المسيح من أجل كلّ المختارين. وهكذا فإن كلمة "العالم" وكلمة "الكلّ" إنما تشيران لكلّ المؤمنين، كلّ الكنيسة، كلّ المؤمنين بالمسيح—أينما وُجدوا. نقرأ في (1يو 2: 2)، على سبيل المثال، "وَهُوَ كَفَّارَةٌ لِخطايانَا. لَيْسَ لخطايانَا فَقَطْ، بَلْ لِخطايا كلّ الْعَالَمِ أيضًا." يتضح من هذا النصّ أن المسيح مات من أجل خطايا كلّ المختارين، الذين هم من كلّ الأجناس والخلفيات، من أجل الأبيض والأسود، وغيرهم.

عائق أمام الكرازة

يقول البعض بأنه إن لم يقل الكارز لمستمعيه "المسيح مات من أجلك" فلسوف تتأثر مقدرته على ربح النفوس تأثرًا جمًّا. لكن إن كان لزامًا علينا أن نختار، فيجب أن نعظ بالحقّ، إن هذا أفضل بكثير من أن نحاول ربح الكثيرين بناءً على تعاليم مغلوطة؛ فالغاية لا تبرر الوسيلة. إن كان الكتاب المقدّس يعلّم بأن المسيح مات من أجل المختارين، فيلزم على الكارز أن يستوعب هذا الأمر في كرازته. فليس من اللائق أن يعلّم الكارز بأن المسيح مات من أجل الكلّ بشكل مطلق. لكن، يجب أن نلاحظ أيضًا أن فعاليّة الكرازة لا تعتمد إطلاقًا على عبارات أو أفكار مغلوطة. لن تجد مثل هذا التصريح المشوّه في تعليم اللاهوتيّ والكارز العظيم ويتفيلد، أو

سبرچـــن. لقد كانا كارزيْن رائعيْن، لكنهما لم يبدّلا تعلـيم الكتاب المقدّس حتى يربحا النفوس. وإنه لمن الشيق حقًّـا أن نلاحظ أن هذا التصريح ليس موجودًا أصلاً في أيّ موضع في الكتاب المقدّس. يكفي أن نقول، مثلاً، "المسيح مات من أجل الخطيّة، ووضع نفسه من أجل الخطاة، مثلك ومثلي. إن كنت تبحث عن الخلاص فقط آمن به. هذه هي مسئوليتك. إن الله يقدم لك الخلاص الآن، آمن بالمســيح فــتخلص." إن هــذا التصريح كتابيّ، وفعّال جدًّا.

بالإضافة إلى ذلك، فليست الكفارة الفعّالة عائقًا أمام الكرازة، بل هي تشجيع عليها. إن كنا نؤمن بتعليم الكتـاب المقدّس، الخاص بالفساد الشامل، الذي حلّ بطبيعة الإنســان بعد السقوط، وأن الله، مع ذلك، اختار شعبًا له من كلّ وأمة، ولسان، وأن المسيح مات من أجل هؤلاء، فلسوف نتشـجع كثيرًا للقيام بدورنا الكرازيّ. من المؤكد أن كرازتنا ستنجح؛ إذ أن الله سبق واختار. إن كلّ ما علينا هو أن نطيع الوصـيّة العظمى، ونذهب برسالة الإنجيل للجميع. ساعتها ستصـبح النتائج الايجابيّة للعمل الكرازيّ مؤكدة؛ لأن المسيح قد حمـل بالفعل خطيّة المختارين، وسيؤمن الناس من كلّ شعب، وأمة، وجنس؛ لأن المسيح مات من أجلهم.

الفصل

الخامس

النعمة

النعمة

حضر اثنان من الطلبة اجتماعًا لدرس الكتاب. قال الأول، "هذا عظيم." بينما قال الثاني، "هراء." استمع اثنان إلى عظة عن قول المسيح "أنا هو الطريق والحقّ والحياة." آمن أحدهم، ورفض الآخرُ الإيمانَ. نشأ توأمان في بيت متدين واحد. أحدهما أحب الله، بينما كرهه الآخر. هذان هما يعقوب وعيسو.

لماذا يتصرف اثنان في نفس الظروف بطريقتيْن مختلفتيْن؟ لماذا يؤمن شخص بينما يكفر الآخر؟ نحاول أن نتعامل مع هذه القضيّة في هذا الفصل. ولكن قبل أن نشرح هذه العقيدة، يجب أن نعرّف ماهيّة النعمة التي لا تُقَاوَم لنرى كيف يعمل صوت الله المغيّر لطبيعة الإنسان جاعلاً إياه خليقة جديدة.

إن الإجابة التي يقدّمها الكتاب المقدّس حول هذه القضيّة هي "النعمة التي لا تُقَاوَم." هذه النعمة هي ما يفسّر قبول البعض لرسالة الإنجيل، ورفض البعض الآخر لها.

ما هي النعمة التي لا تُقاوَم؟

النعمة

النعمة هي عطيّة لا يستحقها الإنسان. يهـتم أحـد طلبة الجامعة بإثارة المشاكل أكثر من اهتمامه بالدراسة. ويقوم بمقاطعة محاضرة يلقيها أحد المدّرسين المشهورين، وهكذا يحرم زملاءه الطلاب من الاستفادة من المحاضرة، وهكذا يثير العديد من المشاكل. ويقوم، بمساعدة البعض بإشعال النيران في مكتبة الجامعة. ويقتلون أحد الطلبة ممن يعارضونهم في قاعة المحكمة. يتم توجيه تهمة القتل وتهم أخرى له. إن عقوبتـه الآن هـي الإعدام. وبينما كان في السجن ازدادت كراهيته للغير، وكثيرًا ما كان يعارض حراس السجن الذين يعملون علـى حفـظ النظام. رغم ذلك، منحه المشرّعون في الدولة عفـوًا عامًـا. والأكثر من ذلك، فقد قرّروا صرف مبلغ معين من المال يعينه على الحياة. هذه نعمة ما كان يستحقها.

وبنفس الطريقة، لقد ارتكبنا كلّنا خطايا فادحـة في حقّ الله—تعالى. ولذا، فإننا مستحقون عقابًا كـبيرًا. لقـد خلقنا الله صالحين. لكننا، وبكامل حريتنا، واختيارنا، عصينا أوامره، ورفضناها. إن الله يطلب أن نرجع إليه، ونترك الخطيّة والتمركز حول الذات، لكننا لم نستمع لدعوته هـذه. لقـد صارت طبيعتنا أن نكره الله، ونرفض وصـاياه، وأن نكـره الغير. إن هدفنا الأسمى هو أن يكون العالم كلّـه متمركـزًا حولنا. إننا نستوجب العقاب الإلهيّ.

في مثل هذا الموقف، بينما كنا خطاة لا نريد التوبة، أحبَّ الله المختارين، وجاء المسيح يسوع ليموت من أجلهم، وحلّ الروح القدس في قلوبهم مانحًا لهم حياة جديدة، وهكذا صارت لهم القدرة على قبول ما صنعِ المسيح من أجلهم، وفي محبته جعل الله من أولئك العصاة أبناءً له (عب 12: 7)، وورثةً لغنى لا يستقصى. هذه نعمة لا نستحقها. هذه نعمة يقدمها الله الآن. وإن أراد أحد الحصول عليها، فليطلب منه—تعالى.

لا تُقاوَم

يشير تعبير "النعمة التي لا تُقاوَم" إلى حقيقة أن الله حين يختار البعض للخلاص، وحين يعمل الروح القدس مغيّرًا في قلوبهم، فلا يستطيع أحد مقاومة ذلك؛ فالله لا يُقاوَم، بل ينجح في تتميم مقاصده دائمًا.

لكن لا يجب أن نسئ فهم تعبير "النعمة التي لا تُقاوَم." البعض يرى أن المقصود هو إجبار أحدهم على القيام بعمل لا يرغب فيه. إن الانهيار الجليديّ، مثلاً، يسقط مكتسحًا بعض الأشخاص بقوة لا تُقاوَم، ويقضي على حياتهم. كذلك يمكن لبعض القوى الشيوعيّة إقصاء واعظ من على منبر كنيسته، ووضعه، على عكس رغبته، في السجن. كذلك يقدر أحد الرجال البالغين أن يختطف طفلاً صغيرًا، دون أدنى مقاومة تذكر من جانب الطفل.

ويفهم البعض "النعمة التي لا تُقَاوَم" على هذا النحو. ويتصورون أن الله هو مجرد قوة تدفع الناس لعمل ما لا يريدونه. فهو، كما يتصورونه، يدفع بالناس، ويجرهم نحو السماء رغمًا عن أنفهم. وهكذا، فهو يقوم بأعمال ضد إرادة الإنسان.

ليس هذا هو المقصود بتعبير "النعمة التي لا تُقَاوَم." إن كانت ثمة مفاهيم مغلوطة نشأت عند البعض بسبب كلمة "لا تُقَاوَم" فربما يجب أن نبحث عن بديل لغويّ. على سبيل المثال، يمكن استخدام كلمة "النعمة الفعّالة،" أو "النعمة الكافية،" أو "النعمة المعيّنة." إن كلّ ما يعنيه هذا التعبير هو أن الله يرسل الروح القدس ليعمل في قلوب الناس حتى إنهم يتحوّلون من الشر إلى الخير. تعني "النعمة التي لا تُقَاوَم" أن الروح القدس، وبكلّ تأكيد، وبدون استثناءات، أو ما شابه، سيجعل كلّ من سبق الآبُ وأحبَ، وكلّ الذين مات المسيح من أجلهم، يؤمنون بالرّبّ يسوع المسيح.

غير أن الله إنما يفعل هذا بطريقة تروق للإنسان. وكما سبقت الإشارة فالإنسان دائمًا حرّ. وهو يفعل دائمًا ما يرغب في القيام به. لكن هذا لا يعني أن الإنسان يتمتع بإرادة حرّة: القدرة على الاختيار وبشكل متعادل بين الشر والخير. هذه حرّيّة لا يتمتع بها الإنسان. فالإنسان الطبيعيّ يكره الله، ويحب الخطيّة، ويخطئ بكامل حرّيته دون إكراه من أيّ

شخص. ولا يقدر مثل هذا الإنسان على اختيار الصلاح الحقيقيّ، ولا يقدر على اختيار الله، لأنه يحيا في عبوديّة للخطيّة، ولشهواته الذاتيّة. ولذا فليس للإنسان حرّيّة حقيقيّة.

إن الله يغيّر قلوب البشر من حب الشر إلى حب الخير. ولكن لأن الإنسان، وبحكم طبيعته الساقطة، يحب الخطيّة، فهو يفعل كلّ ما من شأنه أن يدّمر مستقبله الأبديّ. لكن الله في نعمته الفعّالة لا يترك الإنسان هكذا، ولا يترك قلب الإنسان غير مجدّد. ولكنه أيضًا لا يدفع بالإنسان عنوة إلى السماء. بل إنه—تعالى—يجدّد الإنسان، ويغيّر طبيعته، ويغيّر منها بشكلّ أساسيّ بحيث يصبح الإنسان نادمًا بحق على خطيته، ويصبح حب الله مرتجاه الأكيد. وبعد أن يحدث ذلك، يكره الإنسان أن يقوم بارتكاب الخطايا التي اعتاد ارتكابها. ساعتها فقط يصبح المسيحُ مركزَ حياته، ويصير الإيمان المسيحيّ أمرًا ممتعًا بالنسبة له. هكذا يسعى الإنسان، وبصدق، نحو الله. هذه هي نعمة الله الفعّالة، النعمة التي لا تُقَاوَم.

أفكار مغلوطة

للحديث عن النعمة الفعّالة بطريقة أوضح، يجب أن نقارن بين ما يقوله الكتاب المقدّس وبين الفكر البيلاجيّ ونصّف-البيلاجيّ.

الفكر البيلاجيّ

الفكر البيلاجيّ هو بدعة قديمة. أسسها بيلاجيوس والذي عاش في القرن الخامس الميلاديّ. ومازالت هذه البدعة تطلّ علينا بأشكال ومسّميات مختلفة. وتتعارض تعاليم بيلاجيوس مع تعاليم القديس أغسطينوس، وبالتالي مع الفكر المُصْلَح. ويرجع الفضل الأول والأخير في دحض فكر بيلاجيوس للقديس أغسطينوس. فبحسب القديس أغسطينوس، وبالطبع الفكر المُصْلَح، صار الإنسان بالسقوط فاسدًا بشكل شامل، غير مطلق، وهو لا يقدر على القيام بأيّ عمل صالح حقيقيّ، بعيدًا عن عمل الروح القدس. أمّا الفكر البيلاجيّ، فينكر الفساد الذي حلّ بالإنسان، ويعلّم بأن لا فساد في الإنسان على الإطلاق. في الواقع، بحسب الفكر البيلاجيّ، هناك أشخاص لم يخطئوا على الإطلاق؛ فالإنسان مولود كامل، يتمتع بقدرة كاملة على الاختيار بين الخير والشر. وبالتالي، فهو لا يحتاج في الأساس لعمل الروح القدس، ولنعمة الله الفعّالة.

ولقد رفضت الكنيسة العامة هذه التعاليم الهرطوقيّة في مجمع قرطاج عام 418م، ومجمع أفسس عام 431م، ومجمع أورانج عام 529م.

الفكر نصف-البيلاجيّ

ثمة فكر وسيط بين الفكر البيلاجيّ والفكر المُصْلَح يسمي بنصف-البيلاجيّ، أو الأرمينيّ. والفكر الأرمينيّ لا يتفق

مع الفكر البيلاجيّ في تعليمه بأن الإنسان لا يحتاج لنعمة الروح القدس؛ لأنه مولود صالح. كما أن الفكر الأرمينيّ لا يتفق مع الفكر الأغسطينيّ في تعليم الأخير بأن الإنسان صار فاسدًا بشكل شامل بسبب السقوط، وأنه أمسى عاجزًا عن القيام بالصلاح الحقيقيّ بدون معونة الروح القدس.

ولذا أراد الفكر الأرمينيّ المساومة. وهو فكر يعلّم بأن في الإنسان بعض الصلاح وبعض القدرة على الإيمان بالمسيح. ويرى الفكر الأرمينيّ أن احتياج الإنسان الطبيعيّ للروح القدس احتياج مُلّح. غير أن كلاً من الكاثوليك، ونصف-البلاجيين، والأرمينيّين لا يؤمنون بالنعمة الفعّالة، التي لا تُقَاوَم. وهم يعلّمون بفكرة تعاون عمل الله مع عمل الإنسان، الله يقوم بدوره، وهكذا يفعل الإنسان.

قال أحد الكارزين بهذا الفكر، "ثمة جزء في حياتك لن تلمسه يد الله: إرادتك. لن يسبّب الله لك الإيمان، أبدًا. هذه مهمتك أنت. ولن يقدر أحد على القيام بها غيرك أنت." وكتب آخر، "يجب أن نرفض النظريّة القائلة بأن الله يجدّد الإنسان قبل أن يقتنع الإنسان نفسه بخطيئته، ويتوب عنها، ويتحول إلى الله، ويؤمن به. إن مثل هذا النظريّة تجعل من الله شخصًا مستبدًّا، يتحكم في مصير الإنسان وخلاصه—بحسب مسرة مشيئته فقط، وإرادته العليا. فلا الله، ولا أيّ شخص آخر يقدر أن يجدّدنا، إن كنا لا نرغب في التجديد."

وبحسب رأي هذا الشخص، فيجب على الإنسان أولاً أن يتوب ويؤمن، بعدها سوف يجدّد الله قلبه. لكن، لنرجع الآن للسؤال الوارد ذكره في افتتاحيّة الفصل: لماذا يؤمن أحدهم بالمسيح، بينما في نفس الوقت وتحت نفس الظروف، يرفض آخر؟ هناك إجابتان: إمّا أنها إرادة الإنسان، أو إرادة الله. يقول الأرمينيّون، والبلاجيّون، ونصف-البلاجيّون، إن الفرق بين هذيْن الشخصيْن يكمن في إرادة كلّ منهما.

إن الله يقدّم رسالة الإنجيل للذين يقبلون، وللذين يرفضون على حد سواء. وتأتي كلمته موعوظةً للجميع، ويتصور المسيح أمام عيون الكل، ويرى الجميع دعوة الله للخلاص، لكن الله لا يُرغم أحدًا على الإيمان، والإنسان هو من يقرّر—وبشكل نهائيّ—أمر خلاصه. وإن قرّر الإنسان رفض المسيح، فلا يستطيع المسيح فعل أيّ شيء إزاء هذا الموقف.

أمّا على الناحية الأخرى، فيقول الفكر المُصْلَح بأن الفرق بين هذيْن الشخصيْن إنما يكمن في شخص الله نفسه، وليس في الإنسان. فقد عمل الروح القدس في قلب أحدهما، بينما لم يعمل في قلب الآخر. ولأن الإنسان، بطبيعته، كائن ميت روحيًّا، فلم ينل الشخص الثاني الخلاص، مع أنه سمع رسالة الإنجيل، أو ربما قرأها مرات من قبل. وفي الشخص الأول نرى الروح القدس يعمل بطريقة حيّة وفعّالة. وقد جدد الروح هذا الشخص. ولذا فهم هذا الإنسان طبيعة خطيئته، ومدى احتياجه لله، وشعر برغبته في الخلاص والحياة.

وهكذا، فبالنسبة للفكر الأرمينيّ، السبب الــذي يجعــل الواحد يقبل نعمة الله بينما يرفض الآخر نفس النعمة إنما هــو إرادة الإنسان. في هذه الحالة، يصبح الإيمان عطيّة الإنسان لله، أمّا عند الشخص الآخر فهو عطيّة الله للإنسان. هكذا يظهــر أمامنا نقيضان فيمَ يتعلق بقبول أو رفض البعض لرسالة الإنجيل.

الأسس الكتابيّة

تعتمد العقائد الجوهريّة في الفكر المُصْلَح على بعضها البعض، فإن كان الإنسان قد فسد بشــكل كامِــل بســبب الخطيّة، فيستقيم، عندئذ، أن نؤمن بالاختيار غير المشــروط، وإن كان التعليم الأخير حقيقة واضحة، فلابد أن موت المسيح على الصليب كان موتاً فعالاً، وهكذا.

لننظر الآن إلى علاقة التعليم عــن النعمــة الفعّالــة ومجموعة أفكار أخرى عرضنا لها قبلاً.

الكفارة الفعّالة

يعلّم الكتاب المقدّس بأن الله قــد ســبق وأحــب المختارين، ومن ثمّ أرسل ابنه الوحيد ليموت من أجلهم. لقد مات المسيح بالحق من أجل هؤلاء، كما أوضحنا سابقًا، وهذا الموت كان موتًا فعليًّا، فلم يُظْهِرُ المسيح موتًا مصطنعًا: بــل حمل بالفعل خطاياهم وذنوبهم، وطرحها بعيدًا. الأمر لا يحتمل الاصطناع: إمّا أن يكون المسيح قد خلّص أولئك بالفعل، أو لم يخلصهم؛ إمّا أن يكون قد صار بديلاً عنهم، أو لم يضــع

نفسه بدلاً منهم، كلنا نعرف أن إجابة الكتاب المقدّس على هذه الأسئلة هي بالإيجاب.

إن كان المسيح قد حرّر المؤمنين بالفعل من قبضة الخطيّة، وإن كان الخلاص يُنال بالإيمان، لذا فقد صار ضروريًّا أن يرسل الله روحه القدوس داخل قلوبهم حتى يقبلوا خلاصه، الذي قدّمه المسيح على الصليب، ويلزم أن يكون عمل الروح القدس عملاً لا يُقَاوَم. فلا يمكن أن يكون قبول المسيح متروكًا—ولو جزئيًّا—للإنسان. لو كان الأمر كذلك، لرفض الكلُّ المسيحَ! ولأصبحت كفارة المسيح بلا فائدة.

هكذا تشير كفارة المسيح المحدودة إلى عمل الروح القدس الذي لا يُقَاوَم.

الاختيار غير المشروط

لو أن الله قد سبق واختار البعض للحياة الأبديّة، فبالطبع سيعمل الروح القدس بطريقة لا تقاوم؛ وإلا، وبسبب الفساد الذي حلّ بطبيعة الإنسان بعد السقوط، سيكون الرفض هو مصير عمل المسيح. وبالتالي، لن يكون هناك أيّ مكان للاختيار؛ وساعتها، لن يكون الله في اختياره واثقًا من أن المختارين سيقبلون بالفعل خلاصه، ويؤمنون. إن يقينيّة الاختيار تعني أن الروح القدس يعمل بطريقة ناجحة، وينجح فيمَ سبق الله الآب وعيّنه. ولا يكون هناك اختيار إن لم تكن نعمة الله قويّة وفعّالة (لا تُقَاوَم) في عملها.

يو 6: 37، 44

"كلّ مَا يُعْطينِي الآبُ فَإِلَيَّ يُقْبِلُ، وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا. لأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ لأَعْمَلَ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَهَذِهِ مَشِيئَةُ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كلّ مَا أَعْطَانِي لاَ أُتْلِفُ مِنْهُ شَيْئاً، بَلْ أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ. لأَنَّ هَذِه هِيَ مَشِيئَةُ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كلّ مَنْ يَرَى الابْنَ وَيُؤْمِنُ بِه تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيّة، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ. فَكَانَ الْيَهُودُ يَتَذَمَّرُونَ عَلَيْه لأَنَّهُ قَالَ: 'أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ.' وَقَالُوا: "أَلَيْسَ هَذَا هُوَ يَسُوعَ بْنَ يُوسُفَ الَّذِي نَحْنُ عَارِفُونَ بِأَبِيه وَأُمِّه؟ فَكَيْفَ يَقُولُ هَذَا: إِنِّي نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ؟" فَأَجَابَ يَسُوعُ: 'لاَ تَتَذَمَّرُوا فِيمَ بَيْنَكُمْ. لاَ يَقْدرُ أَحَدٌ أَنْ يُقْبِلَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ.'"

يقول المسيح إن الآب أعطاه المختارين، وإن جميعهم سيأتون إليه. لم يحدّد المسيح هويّة المختارين، لكنه أعلن ببساطة أنهم كلّهم سيأتون إليه. ولسوف يحدث هذا لأن الله يعمل، بطريقة فعّالة، في قلوبهم، بما يجذبهم للمسيح. وهذا ما أعلنه المسيح نفسه (ع 44). سوف يأتي بهم الآب للمسيح، وسيقيمهم المسيح من الموت في اليوم الأخير. إن الفعل "يجتذب" هو نفس الفعل المستخدم للتعبير عن صيد السمك (يو 21: 6، 11) "فَقَالَ لَهُمْ: 'أَلْقُوا الشَّبَكَةَ إِلَى جَانِبِ السَّفِينَة

الأيمَنِ فَتجدُوا.' فَأَلْقَوْا وَلَمْ يَعُودُوا يَقْدِرُونَ أَنْ يَجْذِبُوهَا مِنْ كَثْرَةِ السَّمَك. فَصَعدَ سمْعَانُ بُطْرُسُ وَجَذَبَ الشَّبَكَةَ إِلَى الأَرْضِ مُمْتَلئَةً سَمَكًا كَبيرًا مئَةً وَثلاَثًا وَخَمْسِينَ، وَمَعْ هَذه الْكَثْرَة لَمْ تَتَخَرَّقِ الشَّبَكَةُ." لم تكن الشبكة تقدر على مقاومة بطرس الذي كان يجرها نحو الشاطئ، إنها فاقدة القدرة على المقاومة، ولا تستطيع أن تسحب نفسها للوراء. وهذا هو نفس التعبير المستخدم في وصف بطرس حين "استل" سيفه وقطع أذن عبد رئيس الكهنة (يو 18: 10). وتستخدم نفس الكلمة في أعمال الرسل 16: 19 لتصف ما حدث لبولس وسيلا، إذ "جرّوهما." وكذلك نجد نفس الفعل مستخدمًا لوصف ما حدث للرسول بولس في أع 21: 30 "وجرّوه." نرى في هذه الحالات أن "المفعول به" أو الشيء الذي وقع عليه الفعل لا يُقاوم البتة. هكذا لا يقدر الذين أعطاهم الآب للابن أن يقاوموا، بل سيأتون كلّهم للمسيح، نتيجة عمل الآب كليّ القدرة. وهذا أمر مؤكد، تمامًا كما قال المسيح.

يو 10: 16

"وَلِي خِرَافٌ أُخَرُ لَيْسَتْ مِنْ هَذه الْحَظيرَة، يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ بِتلْكَ أَيضًا فَتَسْمَعُ صَوْتِي، وَتَكُونُ رَعِيّة وَاحِدَةٌ وَرَاعٍ وَاحِدٌ."

يؤكد النصّ، وبشكل واضح، أن المسيح يحافظ على خرافه من الهلاك، بعض هذه الخراف هو بالفعل جزء من رعيّة

المسيح، وهناك خراف أخر ستأتي. وهو سيتولى عمليّة ضمّهم للقطيع، وهو يفعل ذلك عن طريق الروح القدس الذي يعمل فيهم، فيجذبهم للمسيح ويجعلهم—بطريقة قويّة جدًّا—جزءًا من القطيع. حينئذٍ يصبح هناك قطيع واحد يرعاه راع واحد: المسيح.

رو 8: 29- 30

"لأَنَّ الَّذِينَ سَبَقَ فَعَرَفَهُمْ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ، لِيَكُونَ هُوَ بِكْرًا بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ. وَالَّذِينَ سَبَقَ فَعَيَّنَهُمْ فَهؤُلاَءِ دَعَاهُمْ أيضًا. وَالَّذِينَ دَعَاهُمْ فَهؤُلاَءِ بَرَّرَهُمْ أيضًا. وَالَّذِينَ بَرَّرَهُمْ فَهؤُلاَءِ مَجَّدَهُمْ أيضًا."

يجب أن نعرّف بعض المصطلحات. أولاً، كما أثبتنا من قبل، فإن تعبير "سبق وعرف" يعني "سبق وأحب." وهذا هو نفس المعنى الموجود في تك 4: 1 حيث نقرأ أن آدم "عرف" حواء. أمّا كلمة "يدعو" فلا تشير لمجرد دعوة خارجيّة لفظيّة؛ لكن، وبحسب بقيّة أسفار العهد الجديد، فإنها تشير إلى عمل الله الداخليّ الذي يصاحبه تجاوب أكيد.

هكذا فإن الرسول بولس يؤكّد على أن هناك مجموعة من الأحداث القويّة والتي لا تنفصل عن بعضها البعض. وتبدأ هذه الأحداث بمحبة الله الأزليّة للمؤمنين: الذين سبق الله وأحبهم، وسبق وعيّنهم. والذين سبق الله ودعاهم للإيمان. هؤلاء هم الذين حصلوا على التبرير، والتمجيد. إن الله لا

يفشل في خططه من نحو المؤمنين. فهناك نهاية لعمله، وتأكيد لنجاح خططه، واستمراريّة في هذه العمليّة التي تشمل "سبق المحبة،" "والتعيين السابق،" والتمجيد." والآن، إننا نعرف أن هذه اليقينيّة في عمل الله إنما تحدث فقط حين نتأكّد أن الله يعمل بطريقة فعّالة وقويّة في قلوب شعبه.

الفساد الشامل

تؤكد التشبيهات الكتابيّة الخاصة بالميلاد الثاني، والتي تتحدث عن عجز الإنسان الناتج عن السقوط، تؤكد أنه لا يمكن للإنسان مقاومة قصد الله في الاختيار.

القيامة

يقول الكتاب المقدّس إن الإنسان الطبيعيّ ميت بالذنوب والخطايا، وأن لا حياة روحيّة لمثل هذا الإنسان. والإنسان الميت لا يقدر على مقاومة قوة الله التي تقيمه من الموت. سيقوم الكلّ في اليوم الأخير. وكثيرون لن يحبوا ذلك اليوم، وسيصرخون للجبال والآكام أن تسقط عليهم وتغطيهم؛ حيث إنهم خائفون من مواجهة ديّان كلّ العالم. إلا أنهم لا يقدرون على المقاومة! فالله سيقيم—كلّ من مات سواء كان مؤمنًا، أو غير مؤمن. ولا يقدر هؤلاء أن يرفضوا إقامة الله لهم.

حين كان لعازر ميتًا في القبر، أعطاه المسيح حياة، ولم يكن له أن يظل ميتًا في القبر. كان يجب أن يخرج خارجًا.

فلا يفشل المسيح في مقاصده، أي: إعطاء الحياة للعازر.

وبنفس الطريقة، فحين يقيم الله أحدهم من الموت الروحيّ، فإنه من المستحيل على هذا الميت أن يقاوم، يجب أن ينال الحياة فورًا. ولا يمكنه فعل أيّ شيء آخر غير قبول هبة الحياة من الله.

الميلاد الجديد

ثمة تشبيه آخر يتحدث عن عمل الله في قلب الإنسان، هو تشبيه الميلاد. إنه لمن الحماقة أن نتخيّل أن أحدًا يرفض أن يُولَد! فليس بمقدور أحد أن يعترض على ميلاده؛ فهذا أمر يخرج عن سيطرة الإنسان. والإنسان الوحيد الذي يقدر أن يرفض ميلاده هو أصلاً الشخص غير الموجود— الذي لا حياة فيه. وهكذا، فمن غير المعقول أن نتحدث عن أيّ شخص يقدر أن يقاوم ميلاده الروحيّ "اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا، لَكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أينَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أينَ تَذْهَبُ. هَكَذَا كلّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ" (يو 3: 8).

الخليقة الجديدة

التشبيه الثالث هو تشبيه الخليقة الجديدة (2 كو 5: 17، غل 6: 5، أف 2: 10) لا يمكن أن يرفض أيّ شيء مخلوق أن يكون مخلوقًا. ففي وقت ما، لم يكن لأحد أيّ وجود سوى الله—تعالى. وحين قرر الله أن يخلق العالم، لم يقف أيّ شخص رافضًا أن يُخْلَقَ؛ وعندما خلق الله الكون لم يعترض

الكون على عمل الخلق، ولم يقل أيّ شيء لله، "لا، لا أريـد أن تخلقني" لأنه لم يكن هناك أيّ وجود لمخلوق آخر. إن الله كليّ القدرة، وقد خلق ما شاء أن يخلق.

وبنفس القياس، وعلى المستوى الروحيّ، فلا يمكـن لأيّ شخص أن يقاوم مقاصد الله. فالله يخلق من يشاء خليقة جديدة، ولا يوجد من يقول له، "لماذا؟"

عمل الله

كتب الرسول بولس قائلاً إن المؤمنين هم عمـل الله مخلوقون ثانيةً في المسيح يسوع (أف 2: 10) لا يقدر أحدنا أن يرفض أن يكون خليقة جديدة.

هكذا، نرى أن كلّ تشبيه ورد في الكتاب المقـدّس، عن موضوع التجديد، إنما يؤكد على الفساد الذي حلّ بطبيعة الإنسان بعد السقوط، وأن الإنسان صار عاجزًا ليس فقط عن القيام بأعمال صالحة، بل صار عاجزًا—وبشكل ايجابيّ—عن مقاومة عمل نعمة الله. ويؤكد الرسول بولس هذا الأمر بقوله "مُسْتَنِيرَةً عُيُون أَذْهَانِكُمْ، لِتَعْلَمُوا مَا هُوَ رَجَاءُ دَعْوَتِهِ، وَمَا هُوَ غِنَى مَجْدِ مِيرَاثِهِ فِي الْقِدِّيسِينَ" (أف 1: 18، 33).

يا لها من أمور تؤكد قوة عمل الله في قلب الإنسان! شكرًا لله من أجل عمل نعمته التي بدونها لن يخلص أحد.

مرات يسمح الله بصعوبات تعتري حيـاة الإنسـان مثل: الفقر، والخزي، والأمراض، والوحدة، أو المشـكلات.

فمن الطبيعيّ أن يلجأ الشخص إلى صديق له طالبًا المعونة، ونتوقع أن يلجأ الشخص طالبًا يد الله. لكن الإنسان، وبسبب قساوة قلبه، لا يطلب الله إلا حين يعمل الله في قلبه أولاً. ومرات يستخدم الله طريقة أخرى. فيبارك ويمنح الكثيرين بركات ماليّة وماديّة. ونعتقد أنهم نظير هذه البركات سيأتون إلى الله، مصدر كلّ عطيّة صالحة. لكن الكثير منهم والذين يتمتعون بمثل هذه البركات لا يطلبون وجه الله؛ إذ قلوبهم حجريّة. تُرى ما هو السبب؟ يبدو أن الروح القدس لا يعمل في قلوبهم. والأغرب من ذلك، يمكن أن يشاهد أحدهم معجزات دون أن يتأصل الإيمان في قلبه. والسبب في ذلك يعود، بالطبع، لعدم وجود الروح القدس في قلبه. لقد حدث هذا الأمر مع الفريسيّين، والذين لما رأوا الرّبّ يشفي المولود أعمى قالوا إن فيه بعلزبول (يو 9: 40-41). يكمن السبب في عجز الإنسان الطبيعيّ عن قبول ما لله (الأمور الإلهيّة) ما لم يغير الروح القدس قلبه.

ويسمع البعض عظات عن يوم الدينونة، وفي قلوبهم يسخرون من الواعظ—كما فعل معاصرو نوح. وكذلك يمكن أن يكون الواعظ لبقًا، ومهذبًا، ومنطقيًّا جدًّا، ولكن إن لم يعمل الروح القدس في قلب المستمع، فلن يؤمن أحدٌ. لذا، شكرًا لله على نعمته الغنيّة التي لا تُقاوَم، والتي بدونها لن يخلص أحد. لو تُرِكَ الإنسان ليساهم بقدر ضئيل في خلاص

نفسه، لسقط أبدًا؛ إذ أن قلبه فاسد بسبب الخطيّة. ولكن نعمة الله التي لا تُقاوَم تتغلب على هذا الفساد، وهكذا يُولَد الإنسان ولادة جديدة، ويؤمن.

هذا ما حدث مع شاول، لقد كره المسيحَ جدًّا حتى إنه كان يسعى للزجّ بالمؤمنين في السجن. ومع ذلك، وبالرغم من كلّ هذه الكراهيّة، وفي الطريق إلى دمشق، تدّخل الله بطريقة لا تُقَاوَم في حياة شاول. ولم يقدر أن يفعل شيئًا سوى الإيمان بالرّبّ. هذه هي النعمة التي لا تُقَاوَم.

وبعد أربعة قرون من وقت الرسول بولس، عاش أغسطينوس في شمال أفريقيا، وكان أبوه وثنيًّا وأمه مسيحيّة. وعاش باحثًا عن السلام. لقد أمضى حياته في عيش مسرف، سائرًا وراء كلّ اللذات، ولم يُطِعْ وصايا الله. لقد آمن بالفكر المانيّ، وحاول أن يجد السلام في المنطق والتدريس. لكن كلّ هذا لم يعطه سلامًا. وحين جاء اليوم الذي سمع فيه صوتًا يقول له، "خُذْ، واقرأ" ركض، وبسرعة، نحو صديقه أليبسيوس وأخذ كتابًا مقدسًا ووجد مكتوبًا، "لِنَسْلُكْ بِلِيَاقَةٍ كَمَا فِي النَّهَارِ، لاَ بِالْبَطَرِ وَالسُّكْرِ، لاَ بِالْمَضَاجِعِ وَالْعَهَرِ، لاَ بِالْخِصَامِ وَالْحَسَدِ. بَلِ الْبَسُوا الرَّبَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ، وَلاَ تَصْنَعُوا تَدْبِيرًا لِلْجَسَدِ لأَجْلِ الشَّهَوَاتِ" (رو 13: 13- 14). وتمتّع حينئذٍ بالسلام الحقيقيّ وقال لصديقه، "لقد تغيّرت حياتي."

هذه هي أعمال الله. فهو، وفي قمة أنانيتنا، وحين تتقسى قلوبنا، يأتي بنعمته، وبشكل غير متوقع، ليغيّرنا، وهكذا يصير لنا سلام مع الله.

غالبًا ما نجد المؤمنين يقرّون بأنهم لم يأتوا إلى الله من تلقاء أنفسهم، بل لقد جاء الله نفسُه إليهم حين كانت قواهم الروحيّة ضعيفة، وحين لم يكن بمقدورهم أن يعرفوا الله، جاء هو إليهم بطريقة عجيبة، وغيّر حياتهم (يو 6: 37، 44).

كان الرسول بولس يعظ على ضفاف نهر في مدينة فيلبي، وقد سمعت سيدة من ثياترا، كانت بائعة أرجوان، عظته، ولكنها لم تؤمن. ولكن يخبرنا البشير لوقا أن الله فتح قلبها، ولذا آمنت بما قاله الرسول بولس. "فَكَانَتْ تَسْمَعُ امْرَأَةٌ اسْمُهَا لِيدِيّة بَيَّاعَةُ أُرْجُوان مِنْ مَدِينَة ثَيَاتِيرَا مُتَعَبِّدَةٌ لِلّه، فَفَتَحَ الرّبّ قَلْبَهَا لِتُصْغِيَ إِلَى مَا كَانَ يَقُولُهُ بُولُسُ" (أع 16: 14). ولم يكن ممكنًا لها أن تؤمن إلا بعد أن فتح الله قلبها. هذه هي النعمة التي لا تُقاوَم! وهذه هي النعمة التي يجب أن نشكر الله عليها؛ ولولاها لكنا جميعًا أمواتًا بالذنوب والخطايا، غير مبرّرين، وغير مخلّصين.

ولكن يجب أن نحترس من شيء ما. فمع أنه لا يمكن لأحد أن يخلص إلا بعمل نعمة الله التي لا تُقاوَم، إلا أنه لا يجب أن يظن أحدهم أن الإنسان لا دور له في الاستجابة للخلاص الإلهيّ. ربما يعتقد البعض أنه بما أن الروح القدس هو

منشئ الخلاص، فلا يمكن للإنسان القيام بأيّ شيء، وأنه ما عليه إلا الانتظار حتى يبدأ الروح القدس عمله. لا يعلّم الكتاب المقدّس بذلك. بل إنه يحتوي على تصريح واضح بضرورة الإيمان بالرّبّ يسوع.

إن كنت مؤمنًا، فإنك تعلم بأن الكتاب يشهد أيضًا بأن الله هو الذي بدأ فيك هذا العمل الصالح. الله هو العامل فيك أن تريد وأن تعمل. "لأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسَرَّةِ" (في 2: 13) لذا، ضع ثقتك في المسيح يسوع. هذه هي وصيّة الله. وحين تؤمن، توجه بالشكر لله الذي وضع فيك الإيمان.

الفصل

السادس

الخمار

الأبيض

الضمان الأبديّ
"المخلّص مرةً، مخلّصٌ إلى الأبد"

إن أبسط تعريف لعقيدة الضمان الأبديّ هو عبارة "المخلّص مرةً، مخلّصٌ إلى الأبد." هذا تعليم عظيم موجود في الكتاب المقدّس. فبمجرد أن يصير الإنسان خليقة جديدة (مؤمنًا)، فلن يهلك إلى الأبد. لا يمكن أن يذهب المؤمن للجحيم؛ فالمسيح هو ضامن خلاص المؤمنين. ويمكن للإنسان المؤمن أن يتأكد من أمر خلاصه مرة وإلى الأبد، ولا يعود يقلق بشأن مستقبله الأبديّ.

ثبات المؤمنين (القديسين)

يؤكد هذا التعبير على أن المؤمنين، أو القديسين كما يقول الرسول بولس، يثبتون في خلاصهم بفضل عمل المسيح- المخلص وهذا يعني أنهم سيستمرون في الإيمان بالمسيح مدى الحياة، وهكذا فهم مخلّصون إلى الأبد.

ثبات الله

من الممكن أن نستخدم تعبيرًا بديلاً للتعبير السابق، أقصد "ثبات الله" بدلاً من ثبات المؤمنين. إن ثبات المؤمنين يعتمد أصلاً على ثبات الله، ويعتمد خلاص الكنيسة (المؤمنين) وثباتها على ثبات محبة الله، في المقام الأول. وهكذا يجب أن نقارن ثبات المؤمنين بعقيدة العناية الإلهيّة. ففي العالم الطبيعيّ، نعلم أن الله خلق العالم كلّه، وهو الذي يمسك بزمام الأمور فيه. ولو ترك اللهُ الكونَ للحظة واحدة، لصارت الأرض خربةً وخالية. لكن الله خلق العالم كلّه، وهو من يعتني به أيضًا. ونفس الأمر ينطبق على الحياة الروحيّة، فالله لم يُعِدْ خلقنا روحيًّا فحسب، بل إنه يعطينا حياة روحيّة بشكل مستمر، ولو أخذ الله الروح القدس منا لطرفة عين فلسوف نعود للموت الروحيّ، ولطبيعتنا الفاسدة!

ويمكن تشبيه هذا الموقف برجل يعيش في خيمة مملوءة بالأوكسچين. إنه يعيش بفضل الأوكسچين والموجود في منعزل عنه هو شخصيًّا، لو أخذت منه هذه الخيمة، فإنه سيموت حتمًا. إن ما يحفظ المؤمنين من الضياع هو ثبات نعمة الله، ومحبته. وهذا هو أساس الضمان الأبديّ.

ضمان المؤمنين

ثمة تعبير آخر يصف نفس التعليم ألا وهو "ضمان المؤمنين." إن تعبير "ثبات المؤمنين" يصف دور وإيمان المؤمنين

بينما يصف تعبير "ضمان المؤمنين" عمل الله في حفظ المؤمن. فيصف التعبير الأول دور الإنسان؛ بينما يصف الأخير دور الله. ولكن التعبير الأول يؤكد على أن الإنسان محفوظ من السقوط بقوة الله، وبالتالي لن يستطيع أحد أن يخطف أيّ شخص مؤمن من يد الله. فالله هو من يخلّص، ومن يصون، ومن يرعى.

الضمان الأبدي

التعبير الآخر الذي يصف استحالة هلاك المؤمن هو "الضمان الأبديّ." نعم، إنه ضمان أبديّ. فالشخص الذي يضع ثقته في المسيح يسوع إنما هو آمنٌ إلى الأبد، ولن يهلك، ولا يستطيع أحد أن ينتزع منه خلاصه، ولسوف يقضي الأبديّة في السماء.

ولكن الفكر الأرمينيّ يعلّم بعكس ذلك، إذ يقول بأن الشخص الذي وضع ثقته بالفعل في الرّبّ يسوع المسيح، ونال الخلاص يمكن أن يفقد خلاصه. وكذلك يذهب للجحيم. ويؤمن الفكر الأرمينيّ، أيضًا، بأن من أتى للإيمان بالمسيح يمكن أن يضع هذا الإيمان جانبًا، ويهلك. وهكذا يمكن أن يصبح من كان يومًا ابنًا لله إلى ابنٍ للشيطان، ومن كان مخلّصًا إلى ميتٍ! فبحسب الفكر الأرمينيّ، لا أحد يمكنه أن يعلم مصير المؤمنِ الأبديّ.

الأساس الكتابيّ
الاختيار غير المشروط

كما سبقت الإشارة، فإن المبادئ المُصلَحة الخمسة ترتبط ببعضها ارتباطًا وثيقًا. ولذا فإمّا أن يؤمن بها المرء كلّها أو يرفضها كلها. وتأتي عقيدة الضمان الأبديّ كنتيجة حتميّة للتعليم الكتابيّ عن الاختيار غير المشروط. ولو افترضنا عدم صحة عقيدة الاختيار، فسيكون من الحتميّ الحكم على عقيدة الضمان الأبديّ بأنها غير كتابيّة. وهكذا، فإن آمنا بصحة عقيدة الاختيار، فيلزم أن نؤمن بعقيدة الضمان الأبديّ.

والاختيار يعني أن الله سبق واختار البعض للخلاص وللحياة الأبديّة. ولقد قرّر الله بكامل سلطانه، وعظمته، ونعمته أن يذهب المؤمنون لقضاء الأبديّة في السماء. ولو أمكن أن يهلك أحد المختارين، وأن يترك الإيمان—كما يزعم الأرمينيّون—بعدما يبدأ رحلة الإيمان بالفعل، فلسوف ينتفي تعليم الاختيار تمامًا. إن الاختيار يعني أن الله سبق وقرّر أن يَخْلُصَ المختارون. ولذا فلن يهلكوا إلى الأبد. وهذا هو تعليم الضمان الأبديّ.

يقول الرسول بولس في رو 8: 29 إن الله سبق وعرف، أي سبق وأحب، وسبق ودعا، وسبق وبرّر، وسبق ومجّد. ولذا فلو افترضنا أن أحد المختارين سقط من النعمة، وهلك، فيلزم أن ننكر عقيدة التعيين السابق برّمتها. ولكن

الرسول بولس يؤكد أنه لا شيء يقدر أن يفصل المختارين عن محبة الله التي في المسيح يسوع. لا شيء يقدر أن يفصل المؤمنين عن المسيح، لا الشدّة، ولا الأوجاع، ولا الاضطهاد، ولا المجاعات، ولا العري؛ لكن، في كلّ هذه يعظم انتصار المؤمنين بالمسيح الذي أحب الكنيسة. "فَإِنِّي مُتَيَقِّنٌ أَنَّهُ لاَ مَوْتَ وَلاَ حَيَاةَ، وَلاَ مَلاَئِكَةَ وَلاَ رُؤَسَاءَ وَلاَ قُوَّات، وَلاَ أُمُورَ حَاضِرَةً وَلاَ مُسْتَقْبَلَةً، وَلاَ عُلْوَ وَلاَ عُمْقَ وَلاَ خَلِيقَةً أُخْرَى، تَقْدِرُ أَنْ تَفْصِلَنَا عَنْ مَحَبَّةِ اللهِ الَّتِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنَا" (رو 8: 38، 39). هذا هو الضمان الأبديّ. ولا يوجد على الإطلاق أيّ شيء—لا في الماضي، ولا الحاضر، ولا المستقبل يقدر أن يفصل المؤمن عن محبة المسيح.

حقًّا، يعتمد استمرار المؤمنين في الإيمان، وضمانهم الأبديّ على استمرار نعمة الله، وثبات محبته. لو أن إيمان الإنسان يأتي من عندياته هو وليس من الله؛ فيتبع أن الإنسان وبسبب فساد طبيعته، سيفقد خلاصه يومًا ويضع إيمانه جانبًا. نعم، لقد آمن اليوم، لكن ربما يرفض الإيمان غدًا بسبب تغيّر عاطفيّ يعتريه. ربما تحل به المصائب ويبدأ في إلقاء اللوم على الله، ويرفض الإيمان. وربما يتقلّب به الحال، وينتهي إلى رفض الإيمان بالله. بالطبع يمكن فهم الفكر الأرمينيّ في هذا الشأن لأنه فكر يجعل من الإنسان مصدر الخلاص، ومحرّكه الأول. لا غرابة، إذًا، أن يهلك المؤمن!

ولكن حين ندرك أن الخلاص ليس هو عطيّة الإنسان لله، بل بالعكس هو عطيّة الله للإنسان، حينها نتيقن أن الإنسان المؤمن لا يمكن أن يهلك. وهذا الأمر مؤكد؛ لأن الله لا يتغير."لأَنِّي أَنَا الرَّبّ لاَ أَتَغَيَّرُ، فَأَنْتُمْ يَا بَنِي يَعْقُوبَ لَمْ تَفْنُوا" (مل 3: 6)؛ "يَسُوعُ الْمَسِيحُ هُوَ هُوَ أَمْسًا وَالْيَوْمَ وَإِلَى الأَبَدِ" (عب 13: 8). إن الله ثابت في محبته، وهو لا يتقلب من حال إلى حال، ويعرف الله كلّ شيء من البداية للنهاية، ويثبت دائمًا في محبته، ولا يعتريه أيّ تغيير. وحين يبدأ الله عملاً، فلسوف يكملّه إلى النهاية. وهذا هو بالضبط ما نقصد بالضمان الأبديّ، فهو الضمان الذي يعتمد في المقام الأول على ثبات الله نفسه.

ولو أن الله قام باختيارنا إذ رأى فينا إيمانًا بالمسيح، فمن الممكن أن نفترض أنه حين يتغيّر إيماننا بالمسيح أو حين ننكره فلسوف نصير حينئذ عرضةً للضياع. إن الإنسان فاسد بسبب الخطيّة، ولولا عمل نعمة الله اليوميّ الذي يجدّدنا كلّ يوم لذهبنا بعيدًا عن الله، وهلكنا.

ولكن ليست هذه طرق الله. ولم يعطنا الله نعمة مخلّصة إذ رأى فينا استعدادًا للصلاح، أو الإيمان بالمسيح؛ نحن أموات بالذنوب والخطايا، ولا يوجد فينا شيء صغير أو كبير جعل الله يحبنا. بل بالحري، فمحبة الله لنا محبة أساسها الله نفسه. والواقع يقول إن كلّ ما فينا يمكن أن يكون سببًا يجعل

الله يبتعد عنا. لكنه فعل عكس ذلك. فلو أن الله علـــم منـــذ البدء أنه لا يوجد فينا أيّ استحقاق يجعلنا أهـــلاً لاســـتقبال نعمته المخلصة، لذا فلا يمكن أن يوجد فينا أيّ شيء، كالخطيّة أو عدم الإيمان، يمكن أن يجعلاه يبتعد عنا ويأخذ عطيّة نعمته منا. إن سبب محبته يوجد فيه هو. وهكذا نـــرى أن عقيـــدة الضمان الأبديّ إنما تعتمد في الأساس على عمل نعمـــة الله، واختياره الأزليّ.

الكفارة الفعّالة

ذكرت في معرض الحديث عن الكفـــارة الفعّالـــة أن المسيح مات من أجل المختارين، من أجل "الخراف." وتعتمد عقيدة الضمان الأبديّ على عمل المسيح الكفاريّ. إن السؤال الجوهريّ هنا هو "ما الذي حقّقه المسيح بموته على الصليب؟" "هل مات المسيح بالحقيقة أم بشكل نظريّ؟" هل حقًّا أذْهَبَ المسيحُ الإثمَ عن شعبه؟" لو أن المسيح حمل بالفعـــل خطيّـــة المؤمنين، وصار لعنة من أجلهم، كما يقول الرسول بولس في (غل 3: 13) "اَلْمَسِيحُ افْتَدَانَا مِنْ لَعْنَةِ النَّامُوسِ، إِذْ صَارَ لَعْنَـــةً لأَجْلِنَا، لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: ’مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ عُلِّقَ عَلَى خَشَبَةٍ.‘"

لو أن المسيح قام بالفعل بتحمل كلّ الآلام الـــتي لا توصف على الصليب، وهكذا صار بديلاً عن شعبه في حمـــل ذنب الخطيّة (الماضي، والحاضر، والمستقبل)، إذًا لا يمكـــن أن

يهلك أحد من شعب المسيح. لقد حمل المسيح ثمن العقوبة والخطيّة، ولا يمكن أن يهلك من حمل المسيح عقوبته. بل ستكون السماء دار نعيم لكلّ شعب المسيح. وهذا هو قصدنا حين نقول "الضمان الأبديّ."

يحاجّ الرسول بولس في نفس الموضوع بطريقة أخرى إذ يقول في (رو 8: 33- 34) "مَنْ سَيَشْتَكِي عَلَى مُخْتَارِي اللهِ؟ اللهُ هُوَ الَّذِي يُبَرِّرُ! مَنْ هُوَ الَّذِي يَدِينُ؟ اَلْمَسِيحُ هُوَ الَّذِي مَاتَ، بَلْ بِالْحَرِيِّ قَامَ أَيضًا، الَّذِي هُوَ أَيضًا عَنْ يَمِينِ اللهِ، الَّذِي أَيضًا يَشْفَعُ فِينَا!" لقد أُسلم المسيح من أجلنا، من أجل المختارين. هذا هو تعليم الكفارة الفعّالة. ويسأل الرسول بولس قائلاً، "مَنْ سَيَشْتَكِي عَلَى مُخْتَارِي اللهِ؟"

إن كفارة المسيح هي أساس آخر في ثقة المؤمن في أن مصيره الأبديّ محفوظ في السماوات، وأن السماء هي موطنه الأبديّ. هذا هو الضمان الأبديّ للمؤمن.

في الواقع، إن الأساس الأوحد، بل الأكمل، لضمان المؤمنين هو اختيار الآب، والذي تنبع منه، بلا شك، كفارة المسيح. فالكفارة متضمنة في عمل الله الآب في الاختيار. فالله الآب يختار، والله الابن يفدي. وكما سبقت الإشارة، فثمة اتساق كبير بين عمل الآب، وعمل الابن، فموضوع اختيار الآب هو هو موضوع خلاص الابن.

الحياة الأبديّة

توجد أحد أهم الأطروحات الموجودة في الكتاب المقدّس، والتي تدّعم فكرة الضمان الأبديّ في تعبير "الحياة الأبديّة." ويوجد هذا التعبير بكثرة في الكتاب المقدّس. وفي كتابات البشير يوحنا نجد بعضًا من هذه الإشارات، وعلى سبيل المثال:

- "لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ، لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كلّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأبديّة" (يوحنا 3: 16)،
- "اَلَّذِي يُؤْمِنُ بالابْنِ لَهُ حَيَاةٌ أَبديّة، وَالَّذي لاَ يُؤْمِنُ بِالابْنِ لَنْ يَرَى حَيَاةً، بَلْ يَمْكُثُ عَلَيْهِ غَضَبُ اللَّهِ" (3: 36)،
- "اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كلاَمِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَديّة، وَلاَ يَأْتِي إِلَى دَيْنُونَةٍ بَلْ قَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ" (5: 24)،
- "كَتَبْتُ هَذَا إِلَيْكُمْ أَنْتُمُ الْمُؤْمنينَ باسْمِ ابْنِ الله لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لَكُمْ حَيَاةً أَبديّة، وَلِكَيْ تُؤْمِنُوا بِاسْمِ ابْنِ الله" (1 يو 5: 13).

يؤكد الوحي على لسان يوحنا أن للمؤمن حياة أبديّة. لاحظ، أولاً، زمن الفعل المستخدم في الآيات السابقة. يستخدم الكتاب المقدّس زمن المضارع ليعبّر عن هذه الحقيقة.

فالحياة الأبديّة لن يحصل عليها المؤمن في المستقبل، بل هو حاصل عليها الآن بالفعل. وكذلك يمكن لقارئ هذه السطور أن يطلب المسيح من كلّ قلبه، وكلّ نفسه، وكلّ قدرته لينال الحياة الأبديّة الآن. هكذا علّمنا المسيح.

لاحظ أيضًا أنها "حياة أبديّة." هي حياة تمتد إلى المنتهى، حياة بلا نهاية. حقًا، من خَلُصَ مرةً فقد خَلُصَ إلى الأبد. لو كانت وجهة نظر الأرمينيّين صحيحة، ولو كان من الممكن أن يفقد أحد المؤمنين خلاصه، ومن ثمّ يهلك، فيجب أن تكون "الحياة الأبديّة" مستحيلة النوال. يمكن للمؤمن أن تكون له "حياة طيّبة" أو "حياة مقدسة" أو "حياة فوق-طبيعيّة" أو "حياة سعيدة." لكن لا يمكن القول بأن للمؤمن "حياة أبديّة،" إن كان عرضة للهلاك. هذه ليست "حياة أبديّة" بل "حياة مؤقتة." هي حياة قصيرة الأمد، لها نهاية. لكن هذا يتعارض مع كلمة الله. لقد قال السيد المسيح إن كلّ من يؤمن به فله حياة أبديّة. البعض، بالرغم من ذلك، يقول، "اصبر لنرى، ربما يسقط المؤمن ويهلك." لكن الرّبّ يسوع يقول إن للمؤمن به "حياة أبديّة." البعض يقول، "إنها حياة مؤقتة." لكن المسيح يقول، "أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هَذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جَسَدِي الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ" (يو 6: 51). غير أن البعض يقول، "هذا احتمال." لكن الرّبّ

يسوع يقول، "أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا" (يو 11: 25). يقول المسيح، "إن المؤمن به لن يهلك." أمّا الأرمينيّون فيقولون، "هذا من الممكن."

لكن على الرغم من هذه المزاعم غير الكتابيّة، فإن الاستخدام المتعدد لكلمة "الحياة الأبديّة" إنما يُعد سبب فرح لكلّ مؤمن. هذا لأن شهادة الكتاب المقدّس الصريحة تؤكد أن من له "الابن" له "الحياة الأبديّة" وأن من يضع ثقته في الرّبّ يسوع لن يموت أبدًا؛ بل لقد انتقل من الموت إلى الحياة. شكرًا لله على الحياة الأبديّة.

يوحنا 6: 39

"وَهَذِهِ مَشِيئَةُ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَانِي لاَ أُتْلِفُ مِنْهُ شَيْئًا، بَلْ أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ" (يو 6: 39) قبل هذه الكلمات، صرّح المسيح "كُلُّ مَا يُعْطِينِي الآبُ فَإِلَيَّ يُقْبِلُ، وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجًا" (ع 37). هذا مؤكد. وقال المسيح أيضًا إنه جاء ليحقّق مشيئة الآب، وهي ألاّ يهلك أحد بل ينال جميع المؤمنين الحياة الأبديّة. وفي الآية 44 يقول "لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُقْبِلَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي، وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ." ويشير "اليوم الأخير" إلى آخر يوم على الأرض، يوم الدينونة. بكلمات أخرى، فكلّ من يُقْبل إلى المسيح فلسوف يقوم في اليوم الأخير. لن يهلك أيّ شخص آمن بالمسيح. ولن يُفْقَد أحد من يد المسيح. هذا هو الضمان الأبديّ.

يوحنا 10: 28- 29

قال المسيح "وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيّة، وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الأَبَـد، وَلاَ يَخْطَفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي. أَبِي الَّذِي أَعْطَانِي إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْكل، وَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي" (يوحنا 10: 28، 29). لو أننا أردنا آية واحدة تتحدث، وبكلّ صـراحة، عن الضمان الأبديّ، فلن نجد أوضح من هذه الآية. لاحـظ كيف صرّح المسيح بهذا التعليم.

"حياة أبديّة"

يكفي هذا التعبير لإثبات استحالة هلاك المؤمن. فلو افترضنا أن أحدًا من المؤمنين ترك الإيمان، فمن الطبيعـيّ أن نستنتج أن الحياة التي وعد بها المسيح ليست أبديّة، بل هـي حياة قصيرة، لها نهاية. لكنها ليست أبديّة، لكن الأمر بخلاف ذلك، بكلّ يقين.

"لن تهلك"

لو افترضنا، كما يعلّم المذهب الأرمينيّ، أنه بإمكـان المؤمن أن يفقد إيمانه، فالنتيجة الحتميّة أن المؤمن سيهلك. لكن هذا عكس ما قاله الربّ. وليس أدلّ على استحالة هـلاك المؤمن من هذه الآيات. وحتى ينتفي كلّ شك، يؤكد المسيح بأكثر من ذلك، فيقول، "وَلاَ يَخْطَفُهَا أَحَـدٌ مِـنْ يَـدِي." كلمات المسيح هنا صريحة جدًّا. لا يستطيع أحد أن يجعل أيّ مؤمن يفقد خلاصه، أو يهلك. لا يقدر الأحباء، ولا الأعداء

على ذلك. وحتى المؤمن نفسه لا يقدر أن ينتزع نفسه من يد المسيح المخلص. هذا مستحيل بالتمام والكمال. إن الرّبّ يسوع المسيح يمسك ويصون كلّ المؤمنين.

لا يجب أن يتساءل أحد بعد سماع هذه الكلمات عن موقف المسيح من قضيّة الضمان الأبديّ؛ لأن كلمات المسيح واضحة ومؤكّدة. هي واضحة وضوح الشمس في كبد السماء. وقد زاد المسيح نفسه هذا التصريح وضوحًا حين تحدث عن دور الآب.

"من يد الآب"

إن الله الآب القادر على كلّ شيء، هو أقوى من الكل، وأعظم من الكلّ بما لا يقارن. وهكذا فيستحيل أن يُخْطَفَ أحدُ المؤمنين من يد الآب. يا له من تأكيد عظيم على الضمان الأبديّ! لا أدرى كيف يقرأ أحدهم هذه التصريحات العظيمة، ثمّ يؤمن بعد ذلك بإمكانيّة هلاك المؤمن. هذا غير معقول!

أفسس 1: 13، 14

"الَّذي فيه أيضًا أَنْتُمْ، إِذْ سَمِعْتُمْ كَلِمَةَ الْحَقِّ، إِنْجِيلَ خَلاَصِكُمُ، الَّذي فيه أيضًا إِذْ آمَنْتُمْ خُتِمْتُمْ بِرُوحِ الْمَوْعِدِ الْقُدُّوسِ، الَّذي هُوَ عَرَبونُ مِيرَاثِنَا، لِفِدَاءِ الْمُقْتَنَى، لِمَدْحِ مَجْدِهِ."

في أيام الكنيسة الأولى كانت الرسائل والخطابات وبعض الأمور الأخرى، كقبر المسيح، مثلاً (مت 27: 66) تحتوي على أختام. وكان الختم علامة على أصالة الرسالة، وعلى أنها ملكيّة شخص ما، وأنها محميّة من العبث. هكذا يتحدث الكتاب المقدّس عن سكنى الروح القدس، كختم الله—كدليل على أن الإنسان المؤمن إنما هو مِلْكٌ لله، وأن الله نفسه يحمي المؤمن من خطر الهلاك (أف 1: 13- 14، 4: 30) إن هذا الختم يصير فعّالاً حتى يوم الفداء أي: النهاية. ويؤكد الروح القدس ضمان وسلام المؤمنين.

ثمّ يذهب الرسول بولس إلى ما هو أبعد من ذلك مستخدمًا مثلاً آخر للبرهنة على الضمان الأبديّ، فيقول إن الروح القدس هو "عربون" ميراثنا (أف 1: 14). تشير هذه الكلمة، في أصلها اليونانيّ، إلى العربون الذي كان شائع الاستخدام في المعاملات الماليّة، والاتفاقيات. وكان الشخص يدفع عربونًا كعلامة على جديته في دفع ما تبقى من المبلغ المستحق عليه.

إن الروح القدس هو عربون الله الذي به يؤكد أنه يكمّل معنا رحلة الخلاص إلى المنتهى. وهذا يعني أنه بمجرد حصول المؤمن على الروح القدس، فإن الروح القدس (عربون الفداء) لن يتركه. حقًا، إن من نال الخلاص، خَلُصَ إلى الأبد.

1 بطرس 1: 4، 5

"لميرَاث لاَ يَفْنَى وَلاَ يَتَدَنَّسُ وَلاَ يَضْمَحِلُّ، مَحْفُوظٌ فِي السَّمَاوَاتِ لأَجْلِكُمْ، أَنْتُمُ الَّذِينَ بِقُوَّةِ اللهِ مَحْرُوسُونَ، بِإِيمَانٍ، لِخَلاَصٍ مُسْتَعَدٍّ أَنْ يُعْلَنَ فِي الزَّمَانِ الأَخِيرِ."

إن كلمات الرسول بطرس بشأن الضمان الأبديّ معزيّة للغاية. فهو يقول إن للمؤمن كنزًا محفوظًا في السماء. ربما يؤمن البعض بحقيقة وجود الكنز، لكنهم يتشككون في قدرتهم على الوصول إليه. ويظن بعض المؤمنين أنهم ضعفاء جدًّا، وربما لا يقدرون على إكمال رحلة الخلاص. لكن الرسول بطرس يقول إن المؤمن محفوظ للخلاص. وكلمة "محفوظون" هي نفس الكلمة التي تستخدم للتعبير عن المدينة المحفوظة المحصّنة من الأعداء (2 كو 11: 32). ويؤكد الرسول بطرس أن طبيعة هذا الحفظ ليست بشريّة، فلا الملائكة ولا العسكر هم الحراس. إن من يحرس المؤمنين هو الله نفسه! وليس هذا فحسب، بل يضيف قائلاً إن مصدر الحراسة هو قوة الله. نعم، إننا محروسون بقوة الله!

ويتفق البعض على هذا الأمر. ولكن ربما يقولون إن هذه الحراسة مؤقتة، لكن الرسول بطرس يدحض هذا الزعم، وبسرعة. فيقول إن الله يحرس المؤمنين للخلاص الذي سيستعلن في اليوم الأخير، يوم الدينونة. إن ضمان المؤمنين لا يدوم لمدة يوم، أو ما شابه، بل هو أبديّ، يمتد إلى اليوم الأخير.

بعض الاعتراضات

يقول البعض، "ألا نعرف جميعنا أشخاصًا اعترفوا بالمسيح، ربَّما، يومًا ما؟ لقد كانوا يذهبون للكنيسة، ويقرءون كلمة الله، ويصلون، وبدا أنهم مسيحيّون بالفعل، لكن شيئًا ما حدث. لقد تركوا الإيمان، واليوم لا علاقة لهم بالكنيسة، ولا بالمسيح! ألا تثبت هذه الحالات أن المؤمن يمكن أن يسقط، ويهلك؟ للإجابة على هذا السؤال لننظر إلى فكرتَيْن:

المؤمنون

يمكن للمؤمنين أن يضعفوا ويخوروا. كلّنا، في الواقع، نتعرّض لمثل هذه المواقف. وفي مرات كثيرة، لم نكن قريبين من الله كما يجب. كذلك يرتكب بعض المؤمنين أشياء غير طيّبة، حتى إنه يصير من العسير أن نقول إنهم في الأصل مسيحيّون. لقد ارتكب داود خطيّة الزنا، وأنكر بطرس المسيحَ، وفعل شاول بكنيسة المسيح شرورًا عديدة.

لكن عقيدة الضمان الأبديّ لا تعني أن المؤمنين لا يخطئون. فالكتاب المقدّس يعلّمنا أن المؤمنين يخطئون. وفي مرات أُخر يرتكب المؤمنون خطايا كثيرة وشنيعة. لكنه، وبالنظر لحقيقة أن المؤمن مولود من الله ميلادًا روحيًّا، فالروح القدس سكن في قلبه كعربون لفدائه. فالمؤمن في هذا الحال له حياة أبديّة، أي أنه مفديّ ومحروس من الضياع إلى الأبد.

ولا يقول الكتاب المقدّس بأن حياة الإنسان المؤمن مفروشة بالورود، فالمؤمن في حياته على الأرض يشبه طفلاً يتسلق جبلاً ثلجيًّا. وكلما صعد الطفل لفوق، فإنه يسقط مرة بعد الأخرى. لكنه، وفي النهاية، لابد من أن يصل لقمة الجبل. وتشبه حياة المؤمن الرسومات البيانيّة الاقتصاديّة. تبدأ هذه الرسومات بمعدل صغير من النمو، ولكنها يومًا بعد الآخر تأخذ في الصعود. ويحدث ثمة صعود وهبوط في مؤشر الرسومات، ومرات يكون حد الهبوط أشبه بكارثة. يتضح لنا جميعًا أن الخط في الرسم البيانيّ لا يصعد دائمًا، بل يتغيّر ما بين صعود وهبوط. لكن، في النهاية يمكننا أن نلاحظ أن المؤشر ينتهي بشكل عام نحو الصعود إلى أعلى.

قال الواعظ الشهير تشارلس سبرجن، وكان لاهوتيًّا مُصْلَحًا يؤمن ببعض العقائد المعمدانيّة، "إن المؤمن يشبه رجلاً على سطح مركب تخبطه الأمواج من هنا ومن هناك، لكنه لا ينجرف ويغرق في مياه البحر."

ويؤكد الرسول بولس حقيقة الصعود والهبوط في حياة المؤمن، وفي نفس الوقت حقيقة الضمان الأبديّ. فيقول، في معرض حديثه عن الخطايا الشنيعة التي تعترض حياة الإنسان المؤمن، إنه بالرغم من كلّ هذا "فَإِنَّ الْخَطِيَّةَ لَنْ تَسُودَكُمْ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ تَحْتَ النَّامُوسِ بَلْ تَحْتَ النِّعْمَةِ" (رو 6: 14). بكلمات أخرى، فربما يسقط المؤمن في الخطيّة مرات

ومرات؛ ولكن الخطيّة لا تصير سيدًا قاسيًا عليه. فالمؤمن يحارب، حتى في ضعفه، كلّ نوع من الخطيّة. وما يؤكد صدق هذا الأمر هو أن الله لم ينزع الروح القدس من المؤمن. هذا هو الروح الذي يقوّي المؤمن ليحارب الخطيّة. ولا تعني التحذيرات الواردة في الكتاب المقدّس ضد الخطيّة أن المؤمن يمكن أن يهلك، أو أن الله سيتركه، لتسيطر عليه الخطية. فالخطيّة لا تسود على المؤمن، كما يؤكّد الرسول بولس.

لذا، فالإجابة التي يمكن أن نقدمها للسؤال سالف الذكر هي أن "سقوط المؤمنين" هذا سقوط ظاهريّ. وحتى لو تعثّر شخص مؤمن لكن الروح القدس ونعمة الله ستسترد هذا الشخص للإيمان مرة أخرى.

غير المؤمنين

ثمة احتمال آخر يفسر هذه المعضلة. ربما لم يكن هؤلاء من المؤمنين أصلاً. ليس كلّ من يقول، "يا ربّ يا ربّ" هو شخص مؤمن حقيقيّ. كثيرون لهم صورة التقوى، ولكنهم ينكرون قوتها (2 تيم 3: 5) كثيرون، على شاكلة يهوذا الإسخريوطيّ، يمكنهم أن يعظوا برسالة الإنجيل، وربما يجرون معجزات، لكنهم هالكون! كثيرون يظهرون كملائكة نور، لكنهم في الواقع شياطين (2 كو 11: 14). "كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ: يَا رَبّ يَا رَبّ، أَلَيْسَ بِاسْمِكَ تَنَبَّأْنَا، وَبِاسْمِكَ أَخْرَجْنَا شَيَاطِينَ، وَبِاسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ

كَثِيرَةً؟ فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! اذْهَبُوا عَنِّي يَا فَاعِلِي الإِثْمِ!" (مت 7: 22، 23). تسقط بذار الكلمة على تربة غير عميقة، وغير متأصلة، ويظهر جذرها بسرعة؛ ولكن حرارة الشمس سرعان ما تحرق ما تبقى. كثيرون حين يسمعون رسالة الكرازة، يتأثرون بمشاعرهم فقط، ويشعرون بالفرح، ولكنهم ينسون التزامهم من نحو الإيمان بالمسيح خلال وقت قصير.

إن هذه الأفكار لا تثبت إمكانيّة هلاك المؤمن، بل بالعكس تؤكد لنا، كما يقول الكتاب، أننا ينبغي أن "نتمّم أمر خلاصنا." حتميٌّ أن نجعل خلاصنا واختيارنا ثابتيْن (2 بط 1: 10). هناك من يظهر على أنه ممتلئ بالإيمان، ولكن الإيمان الحقيقيّ لا يوجد في قلبه. من الممكن أن يكون أحدهم عضوًا في كنيسة محليّة، وأن يكون قد تعمّد، واشترك في مائدة الرّبّ، ولكنه يهلك في النهاية. "وَلَكِنْ لَيْسَ هَكَذَا حَتَّى إِنَّ كَلِمَةَ اللهِ قَدْ سَقَطَتْ. لأَنْ لَيْسَ جَمِيعُ الَّذِينَ مِنْ إِسْرَائِيلَ هُمْ إِسْرَائِيلِيّونَ" (رو 9: 6). فليس كلّ من يواظب على الحضور في الكنيسة "المنظورة" عضوًا حقيقيًّا في الكنيسة "غير المنظورة:" التي يمثلها المؤمنون الحقيقيّون.

علينا أن نتأكد دائمًا أننا في المسيح يسوع، وأن نتوب باستمرار عن خطايانا، وأن نطلب إلى الرّبّ يسوع المسيح أن يخلّصنا.

كلّ هذا، على أيّ حال، لا ينفي حقيقـــة اســتحالة هلاك المؤمن. لأنه كما رأينا ربما يكون هؤلاء المؤمنون ضعفاء متعثرين، أو أن يكونوا غير مؤمنين أصلاً. إن الدلائل الكتابيّة التي تؤكد حفظ الله للمؤمنين صريحة وقويّة جدًّا. لن يهلــك من آمن بالرّبّ يسوع المسيح.

الضمان الأبديّ، هل هو تصريح بالكسل؟

ألا يتسبب الإيمان بالضمان الأبديّ في نــوع مــن الاسترخاء والإهمال الروحيّ؟ ألا يجعل هذا الإيمــان الــبعض يفعلون ما يحلو لهم من خطايا بحجة أنهــم مخلّصــون وغــير هالكين؟ ألا يمكن أن يرتكبوا كــلّ صــنوف الخطايــا، ولا يعبثون؟

إن من يعيش بهذا المنطق شخص غير مسئول، وغــير جاد. ولا يبرهن سلوكه هذا على إيمان بالرّبّ يسوع المسيح. وليس من المنطقيّ أبدًا أن يفكر المؤمن بهذه الطريقة. ســيمنع الروح القدس المؤمنين من التفكير على هــذا النحــو. إن الله الذي بدأ أمر الخلاص في قلب المؤمن لن يتركه لسيادة الخطيّة (رو 6: 14). إنه تناقض كبير أن نتكلم عن شــخص مــؤمن يرتكب ما كانت تتوق إليه طبيعته الفاسدة سابقًا. فتعيين الله للخلاص يشمل تعيينًا لحياة القداسة، ولــيس لحيــاة عــدم المسئوليّة والانحلال (أف 1: 4). ولو زعم أحدهم أن ما يفعل ليس ذا قيمة مادام قد نال الخلاص، فإن هذا الشخص يثبــت

أنه ليس مخلّصًا. إن التعيين السابق ليس مدعاة للفساد، والكسل؛ بل هو دافع لحياة نقيّة طاهرة. إن تعبير"المخلّص مرةً مخلَّصٌ للأبد" لا يعني أن المؤمن قد أزيح عنه الذنب، وأنه صار مخلّصًا، وأنه يسير في طريقه نحو السماء فحسب؛ بل يفيد أيضًا أن المؤمن صار حرًّا من قوة الخطيّة. إن الخلاص ليس من ذنب الخطيّة، فحسب بل من قوتها أيضًا. ويستحيل أن ينال أحدهم خلاصًا من ذنب الخطيّة دون الحريّة من قوتها. إن "الضمان الأبديّ" يعني أن المؤمنين سيستمرون في إيمانهم بالرّبّ يسوع المسيح. وإيمانهم هذا يشمل الحزن على الخطايا والتوبة عنها. إن كان أحدهم يشعر بالندم على خطاياه، ويترك نفسه ليعيش عبدًا للخطيّة، فإنه بهذا السلوك يؤكّد عدم حصوله على الخلاص أصلاً!

وكذلك فتعبير الضمان الأبديّ، كما سبقت الإشارة، يفيد بأن الله نفسه يثبت في محبته، ويحرس المؤمن من السقوط، لخلاص سيتم استعلانه في اليوم الأخير. فليس الخلاص عتقًا من الجحيم والخطيّة فحسب. إن هذا افتراض مستحيل أصلاً.

الأكثر من ذلك، فحين يدرك المؤمن روعة "الضمان الأبديّ،" فسوف يجد نفسه مندفعًا نحو القداسة والجهاد الروحيّ، لأنه هكذا يقدّم الشكر للرّبّ من أجل الخلاص. وأفضل طريقة لتقديم الشكر للرّبّ هي حفظ وصاياه. وحين

يدرك المؤمن أنه داخليًّا مصابٌ بفساد الخطيّة، وأنه بالطبيعة الفاسدة هذه يكره الله، وأن الإيمان ليس منه، بل هو عطيّة الله، وأن السبب الحقيقيّ الذي يؤكد روعة مستقبله الأبديّ هو سكنى الروح القدس، سيرفض كلّ خطيّة، وسيركع أمام الرّبّ شاكرًا الذي بدأ عمل الخلاص في قلبه، والذي سيحضر هذا العمل إلى كماله (في 1: 6).

إنه لمن الساخر حقًّا أن نفترض أن "الضمان الأبديّ" يشجع على حياة عدم المسئوليّة والخطيّة.

الخلاصة

إن الضمان الأبديّ عقيدة رائعة يتحدث عنها الكتاب المقدّس. لا تدع أحدًا يترع منك هذا الفرح المنقطع النظير الذي تسبّبه هذه العقيدة. افرح لأن خلاصك أبديّ. يا له من خبر عظيم أن خلاصك بدأ بنعمة الله، وأن الله سيحفظك من أيّ ضياع! يا له من امتياز أن تقضي كلّ حياتك مع المسيح يسوع، وأن تعرف أنه بمجرد حصولك على الخلاص لن تهلك أبدًا، بل تصير محروسًا، بقوة الله، إلى يوم المجيء الثاني للمسيح! مجدًا لله! مجدًّا لله من أجل كلّ حسناته، ومن أجل اختياره؛ مجدًّا للابن من أجل عمله الكفاريّ؛ مجدًّا للروح القدس من أجل عمله الفعّال الذي لا يُقاوَم؛ مجدًّا للثالوث الأقدس من أجل حفظه للمؤمنين إلى الأبد.

الفصل
السابع
الكرازة
والاختيار

الكرازة والاختيار
إن كان الله قد اختار البعض للحياة الأبديّة، فلماذا نكرز؟

يرى كثيرون من المؤمنين أن عقيدة الاختيار (التعليم القائل بأن الله قد سبق وأحب البعض، وأنه — تعالى — عيّنهم للحياة الأبديّة إذ صاروا مشابهين صورة ابنه، الذي صالحهم مع شخص الله بموته وكفارته من أجلهم، وأودع فيهم الروح القدس ليطبّق عمله فيهم بأكثر فعاليّة)، إنما تتعارض مع الكرازة، وأنه إن آمن أحدهم بمثل هذه العقيدة، فإنه سيترك غيرته الكرازيّة، وحماسه في ربح النفوس للمسيح. فالتعليم الأول — بالنسبة لهم — يقف حائلاً، بل عائقًا، أمام ضرورة إعلان رسالة الإنجيل، ورسالة المصالحة للخطاة. ويرى هؤلاء أن عقيدة الاختيار لا تتناسب أبدًا مع شغف المؤمن في القيام بالعمل المرسليّ، ومحبته للنفوس البعيدة عن الرّبّ.

ويصل الحال بهم إلى استنتاج غير دقيق، إذ يقولون بأن الكارز عليه أن يختار بين فكرتين: إمّا أن يكرز ويرفض عقيدة

الاختيار بالتمام والكمال؛ أو أن يؤمن بعقيدة الاختيار ويضع الكرازة جانبًا. ويرونْ بأن الإنسان حرّ—تمام الحريّة—في أن يقرّر مصيره الأبديّ، فالقرار الكامل في يده هو. إنه هو مـن يختار أن يسمع رسالة الإنجيل، ويستجيب لها؛ وهو من يقرّر، حين يسمع، أن يقبل المسيح، أو أن يرفضه تمامًـا. وهـذه، بالتأكيد، هي نقطة الانطلاق عند مثل هذا النوع من التفكير اللاهوتيّ.

ويقولون أيضًا إن كانت عقيدة الاختيـار صـحيحة، سوف يأتي الله بالمختارين سواء كرز الكارزون، أو تقاعسـوا عن عملهم. فهو كليّ السلطان، ويعرف أن يجذب مختاريـه للإيمان بالمسيح يسوع كيفما شاء، وأينما شاء! النتيجة النهائيّة هي: إمّا الاختيار أو الكرازة، ولا يمكن الجمع بـين هـذيْن النقيضيْن؛ إذ لا يمكن المصالحة بينهما.

وقد انتهى الحال، بالتالي، بأن اهتم البعض بـالكرازة، وأنكروا الدور الإلهيّ في أمر الخلاص (الاختيـار)؛ بينمـا لا يكرز البعض الآخر على الإطلاق، لأنهـم أنكـروا الـدور الإنسانيّ في التفاعل مع رسالة الإنجيل.

في الواقع، لقد تسببت هذه المشكلة في خلق فُرقة كبيرة بين المؤمنين، وصار المؤمنون بعقيدة سـيادة الله في الاختيـار يجدون صعوبة بالغة في مشاركة من يرفضون نفس العقيدة في العمل المرسليّ، عامة، والكرازيّ، خاصة. وبنفس القدر مـن

الصعوبة، يجد المؤمنون بضرورة الكرازة العمل مع المؤمنين بعقيدة الاختيار أمرًا غير مقبول. وجعلت هذه المعضلة كثيرين من المؤمنين ينفصلون عن بعضهم البعض، ويشهد التاريخ عن رجال عظماء تركوا العمل المشترك بسبب هذه الأزمة!

وتدور في ذهن الكثيرين عدة أسئلة، في هذا الشأن. "كيف يمكن أن نكرز إن كان الله قد اختار البعض للحياة الأبديّة؟" أو بالأحرى، "لماذا نكرز، أصلاً، إن كان الله قد عيّن البعض للخلاص؟" "ألا يستطيع الله أن يأتي بهم إلى معرفة المسيح سواء كرزنا أو لم نكرز؟" "وما الفائدة من الكرازة، إن آمنا بالاختيار؟" "أيصحّ أن نختار بينهما؟" "وهل يمكن المصالحة بينهما؟" "وإن كانت المصالحة ممكنة، فكيف تكون؟" "هل فعلاً الاختيار يعوق العمل الكرازيّ؟" "أو هل يمكن أن يستقي العمل الكرازيّ من الاختيار دفعة إلى الأمام، وسببًا في النجاح؟" "هل نجد في التاريخ—الكتابيّ أو الكنسيّ—كارزين آمنوا بعقيدة الاختيار؟"

يحاول كاتب هذه السطور أن يجيب على هذه التساؤلات إذ هو يؤمن بيقينيّة اختيار الله للبعض وتعينهم للحياة الأبديّة؛ وفي ذات الوقت يؤمن بضرورة القيام بالعمل الكرازيّ وحتميّته كتتميم لوصيّة المسيح يسوع التي تركها للكنيسة. وإذ يحاول الكاتب معالجة هذا الموضوع، فثمة نقاط يجب التركيز عليها أولاً.

الاختيار حقيقة اختباريّة لا يمكن إنكارها

إن المؤمنين بعقيدة الاختيار، من خلفيّة الفكر المُصلَح، يختلفون عن غيرهم من المؤمنين بنفس العقيدة من خلفيّة أرمينيّة، ويؤمن اللاحقون بأن أساس الاختيار إنما هو معرفة الله السابقة بأن فلانًا سيسمع رسالة الإنجيل ويتجاوب معها، وهكذا اختاره الله لأنه هو الذي سبق واختار الله. ولكن بغض النظر عن "أساس" عقيدة الاختيار، فمعظم البروتستانت يؤمنون بها كحقيقة لا يمكن إنكارها. الاختيار واقعٌ، كلّنا اختبرناه. وكلّنا، حين نركع لنشكر الله لأجل خلاصنا، لا نقول "أشكرك، ياربّ، لأني اخترتك." بل نقول، حتى بدون التفكير في عقيدة الاختيار، لا من جهة الفكر أو الأساس، "أشكرك ياربّ، من أجل فيض نعمتك واختيارك لي للحياة الأبديّة." كلنا نؤمن بالاختيار إن نظرنا إليه لا كموضوع جدليّ، تستحوذ عليه قاعات كليّات اللاهوت، ويناقشه اللاهوتيّون، وعلماء الكتاب المقدّس. لا يتحدث الكتاب المقدّس عن الاختيار من هذا المنظور إطلاقًا. بل يقدمه على أنه موضوع لتعزيّة المؤمنين، وتشجيعهم، وتأكيدٌ على نعمة الله المتفاضلة في أمر الخلاص. إذًا، نخطئ، كثيرًا، إذ نتعامل مع أمر الاختيار من منظور "جدليّ." الاختيار موضوع تعبديّ، تقويّ، مقصود به تمجيد الله على نعمته، وتأكيد مجد الإنسان، المستعادة إليه صورة الله.

إذًا، سواء كنا نؤمن بالاختيار غير المشروط، المبني على نعمة الله فقط، أو الاختيار المؤسّس على سبق معرفة الله، فليس هناك من يختلف على الحقيقة ذاتها. كلّنا نقر بها حين نركع على ركبنا!

الكرازة حتمية لا يمكن تجنبها

بنفس قدر وضوح عقيدة الاختيار في نصوص الكتاب المقدّس، هكذا نجد التعليم الخاص بضرورة الكرازة، إذ هي حياة الكنيسة، وطريقتها الأكثر فعاليّة للتعبير عن محبتها للمسيح، وطاعتها له في المأموريّة العظمى، ومحبتها للعالم من حولها، وخروجها من ذاتها. لا مفرّ من الكرازة أمام كلّ مؤمن يطيع صوت المسيح، ولا مفرّ للكرازة أمام كلّ كنيسة ترغب في إعلان رسالة الإنجيل، والمصالحة مع الله أمام العالم. بالكرازة، يسطع نور الإنجيل ليضئ للجالسين في الظلمة وظلال الموت، وبها أيضًا يعطي الروح القدس حياة، وخلاصًا للذين هم أموات بالذنوب والخطايا. وليست الكرازة حياة الكنيسة فحسب، بل هي ضمان تجدّدها، وبرهان طاعتها للمسيح—الرّبّ.

الآن، إن كان الاختيار حقيقةً، وإن كانت الكرازة ضرورة، فما طريق المصالحة بينهما؟ "كيف نكرز ونؤمن بالاختيار في ذات الوقت؟"

الاختيار سر نجاح الكرازة

لا يقف الاختيار عائقًا أمام العمل الكرازيّ؛ بل على العكس، الاختيار يشجعنا على الكرازة ويضمن نجاحها، وإثمارها. إن الاختيار يؤكد أن الكارز سيكون ناجحًا في رسالته، حتى حين يواجه التحديات، والصعوبات، والرفض، والثمر القليل. وبدون الاختيار لن ينجو أحد، ولن ينال أيّ شخص خلاصًا من الله؛ إذ أن الكلّ ميت بالذنوب والخطايا، وإله هذا الدهر قد أعمى، ومازال يعمي، أعين الكثيرين لئلا يروا نور الإنجيل. الكلّ ميت، بدون الاختيار. الكلّ هالك، بدون سبق عمل نعمة الله. لكن، لأن الله قد سبق وأحب، وسبق وعيّن الكثيرين للحياة الأبديّة، ولأن الكارز قد خرج ليكرز، فلسوف يصحب الروح القدس كلمات الكارز ليقيم من الموت المختارين من بين مستمعيه. فالاختيار يضمن نجاح الكرازة.

وليس من المطلوب أن يسعى الكارز وراء معرفة من هم "المختارون" أو من هم "المرفوضون" من بين سامعيه.[i] هو أصلاً لا يعرف "المختار" أو "المرفوض." بل هو مطالب أن يعلن رسالة المصالحة، ومحبة الله للكلّ دون تحيّز، ولا استثناء. وبالتالي، فعلى الكارز أن يقدم، وبكلّ حماس، وجديّة، وفعاليّة رسالة الإنجيل والتي تبدأ بالحديث حول ما صنع الله— تعالى— في شخص المسيح، إلى أن تنتهي بتقديم الدعوة كي يضع الإنسان ثقته في المسيح، كمخلصٍ وفادٍ.

إن هذه الأمور لا يجب، بأيّ حال من الأحـــوال، أن تقدّم بطريقة "مملّة،" وكأن الكارز يقول، "هذه مجرد طريقـــة الله للخلاص. إن كنت تؤمن، فحسنًا تفعل. الأمر سيتوقف، في البداية والنهاية، على عقيدة الاختيار." إن هذا ملـــلٌ، مـــا بعده مللٌ! فالكارز الذي يسعى بالفعـــل لإعـــلان رســـالة الخلاص، يقدّم، وبكلّ حماسة وتحفيـــز، محتـــوى الرســـالة، ويطالب المستمع أن يضع (هنا والآن) ثقته في يسوع المسيح، الطريق، والحق، والحياة، لينال الخلاص، ويتغير قلبه من القلب الحجريّ للقلب اللحميّ. ويطالب الكارزُ المستمعَ أن يتـــوب عن طرقه الملتويّة الشريرة، سالكًا في طريق النـــور، وجـــدّة الحياة. إذًا، الاختيار هو ضامن نتيجة العمل الكرازيّ. بل إن سيادة الله في الاختيار تؤكد على أن الكرازة ستكون ناجحة، ومثمرة، بلا شك.[ii]

وكذلك، فالواقع يؤكد على أنه بدون الإيمان بســـيادة الله لا يمكن تصور الكرازة على أنها عمل ناجح. على الكارز أن يضع في ذهنه دائمًا أن "مجرد" الكلمات لا تعني شيئًا حين تقع على أرض محجرة؛ وأن الإنسان الطبيعيّ لا يقبل ما لروح الله؛ وأنه لا يمكن لأحد أن يقول إن يسوع رّبّ إلا بـــالروح القدس. ما لم يمد الله يده، وبنعمته يسبق ويضـــع الإيمـــان في القلب، لن تنجح أيّة كرازة. بكلمات أخرى، كمـــا يقـــول چـــيمس پـــاكر، في رائعتـــه ***Evangelism and the***

Sovereignty of God "إن لم يكن هناك عنصر إلهيّ يفوق كلّ قدرة الكارز ومجهوده، فكلّ العمل الكرازيّ محكوم عليه بالفشل، لا محالة."[iii] وفي نفس السياق يؤكد الكارز، بل يتأكد، أن الله يعطي الإنسان ما يطلب الإنسان ذاته.[iv] على الكارز أن يؤكد للمستمع أنه إن رغب، بحق، في نوال الخلاص الذي يقدّمه المسيح، فالمسيح لن يخرجه خارجًا. هكذا قال المسيح!

الحواشي

---

[i] Bratt, James, ed. *Abraham Kuyper: A Centennial Reader* (Grand Rapids, MI: Wm. B. Eerdmans Publishing Company, 1998), 488.

[ii] J. I. Packer, *Evangelism & Sovereignty of God* (Downers Grove, IL, Inter-varsity Press, 1991), 99.

[iii] Ibid., 106.

[iv] Ibid., 109.

- ما الذي حدث لطبيعة الإنسان بعد السقوط في معصية الله؟
- هل عيّن الله البعض للحياة الأبديّة، وغضّ النظر عن البعض الآخر؟
- منْ أجل مَنْ مات السيد المسيح عَلى الصليب؟
- هل يمكن أن يرفض الإنسان صوت نعمة الله المخلّصة؟
- هل يرتد المؤمن ويهلك؟



وجيه يوسف

مدرس مساعد بكليّة اللاهوت الإنجيليّة بالقاهرة. تخرج في كليّة اللاهوت الإنجيليّة بالقاهرة عام 1994. وحصل على ماجستير في ال... (M.A.R) من كليّة لاهوت ...tminster ... 2002. وماجستير في اللاهوت (Th.M) من ... Calvin في عام 2004. يدرس حاليًا للحصو... الدكتوراه (Ph.D) من جامعة ...gham المملكة المتحدة.





Eastern Star